# السُّنن الإلهيَّة

ومن هذه السُّنَنِ:

## ١- سُنَّةُ العدل:

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: { يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا...}الحديث(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس].

• ومن عظمة الله تعالى في عدله: ما كتبه فوق عرشه العظيم «رحمتي سبقت غضبي».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: { إِنَّ اللهَ لَمَّا

---

(١) أخرجه مسلم: ك: البر والصلة والآداب، ب: تحريم الظلم، ح (٢٥٧٧).

قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي }[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء].

• فَتَأَمَّلْ وَتَدَبَّرْ وتعجَّب من صبر الله تعالى وحلمه ورحمته على من عصاه وخالف أمره، وطغى وتكبَّر، وجحد وعاند، ونأى وأعرض، وظلم وسرق سنوات عديدة، والله سبحانه وتعالى حليم صبور.

انظر لصبره وحلمه على الذي أهمل شرعه، وحكم بغير ما أنزل، وفضَّل موالاة الكافرين على المؤمنين، واستهزأ بآيات الله، وعادَى أولياءَ الله، وضيق عليهم، وأَمَّمَ المساجد، ووضع الشُّرَطَ على دور العبادة الأخرى، وتعامل بالرِّبا، ورتَع في ثروات شعبه، حتى كادت الرعيَّة كلها أن ترتع مثله، واستحوذت عليه بطانة السوء، وحكم شعبه مُستترًا تحت عباءة ومسمى الإرهاب وكثرة السكان، فكان طوال حكمه يحكم بقانون الطوارئ، بينما شعبُه الطيِّب لا يعرف الإرهاب إلا من سَدَنَتِهِ وجنده، وشجَّع أهل الغناء والرقص

(١) أخرجه البخاري: ك: التوحيد، ب: ﴿وكان عرشه على الماء﴾، ح (٧٤٢٢).

والمجون، وضيَّق على أهل العلم، فبعد أن كانت مصر غنيَّة بثرواتها وصناعاتها ومنتجاتها ورجالها وعلمائها وخيراتها صارت في عهده الرائدة الأولى في الفساد، والأخيرة في إنتاجيَّة العلم والعمل، وتخريج العلماء، وتأخَّرت عن ركب الحضارة سنوات عجافًا في عصره، وتحت ظل حكمه، في الوقت نفسه الذي فسدت فيه وتلوثت الأخلاق والتعاملات والبيئة والهواء، كما تلوث الحكم والسياسات والزراعات والصناعات، ويكفي أن تعلم: [ أن مصر كانت تستورد القمح من أمريكا على مدى ثلاثين عامًا، ثم تمَّ زرعه في أرض مدفون بها نفايات نوويَّة، مما تسبَّب في إصابة الكثير من المصريين بالسرطان ](١).

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت].

* * *

(١) نقلًا عن الأستاذ الدكتور: محمد علي أحمد، أستاذ النانوتكنولوجي، بكلية العلوم بجامعة القاهرة، في محاضرة له بصالون الدكتور: حامد طاهر، الأستاذ بكلية دار العلوم، ونائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق.

## وقفة

## (عففت فعفَّت رعيتك)

• قال وهب بن منبه: « إذا هم الوالي بالجور (بالظلم) أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزرع والضرع وكل شيء، وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك ».

• وقال علي بن أبي طالب لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: « عَففتَ فعفَّت رعيتُك، ولو رتعت لرتعت ».

• وقال الوليد بن هشام: « إن الرعية لتفسد بفساد الوالي، وتصلح بصلاحه ».

• وقالوا: « إصلاح الرعيَّة خير من كثرة الجنود ».

• « ينبغي للسلطان ألا يتخذ الرعيَّة مالًا وقُنيَة، فيكونوا عليه بلاءً وفتنةً، ولكن يتخذهم أهلاً وإخوانًا يكونوا له جندًا وأعوانًا ».

• إن إصلاح السلطان نفسه بتنزيهه عن سفاسف الأخلاق وتَرَفعه عن صحبة ذوي البطالة والمجون هو الكفيل بإصلاح الرعيَّة.

## ٢- سُنَّةُ الاستدراج والإمهال:

قال الله ﷻ: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾[القلم].

• إن الله تعالى يُمْهِلُ ولا يُهْمِلُ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه].

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ} قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾(١) [هود].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت].

فإذا رأيت اللهَ ﷻ يُنعِم على عبده، ويَمُدُّهُ بالمال والبنين، وهو قائم على معصية الله، ومشغول بذلك عن طاعة ربه ومولاه، فاعلم أن ذلك استدراج من الله له.

قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون].

---

(١) أخرجه البخاري: ك: تفسير القرآن، ب: قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ..﴾، ح (٤٦٨٦).

• ومن الدروس المستفادة من سُنَّةُ **الاستدراج والإمهال**: أن الله ﷻ يُهَيِّيء للظالمَ المستبِدِّ الفرصة للإصلاح والتوبة، وردِّ الحقوق والمظالم لأهلها، ويرسل له من يقيم عليه الحجة مرة تِلْوَ الأخرى، ومَن يُذَكِّره ويجعله شاهدًا على الآيات والعبر من حوله.

وتأمل سعة رحمته وعفوه في قوله تعالى لهؤلاء الجبابرة الطغاة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج].

أي: لو تابوا وندموا وأصلحوا لا ينالهم العذاب بعد ما قاموا به من القتل والتعذيب للذين آمنوا، لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، وكذلك التوبة النَّصوح. لذلك يعجَبُ ربك من رجل كافر يقتل مسلمًا، وكلاهما يدخل الجنة، فأما المسلم فَقُتل شهيدًا فدخل الجنة، وأما الكافر، فأسلم فيما بعد وحسُنَ إسلامه، وقاتل مع المسلمين، وقُتل شهيدًا فيدخل الجنة (١).

---

(١) انظر: ما أخرجه البخاري: ك: الجهاد والسير، ب: الكافر يقتل المسلم ثم يسلم، فيسدد بعد ثم يقتل، ح (٢٨٢٦)، ومسلم: ك: الإمارة، ب: بيان الرجلين يقتل أحدهم الآخر يدخلان الجنة، ح (١٨٩٠). من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

• فالحذرَ كلَّ الحذرِ من نعم الله ﷻ التي تتوالَى على عبده، وهو يظن كما ظن صاحب الجنتين في سورة الكهف لما قال لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف]، فاغترَّ بما يملك واعتمد عليه، ونسي فضل ربه عليه، فكفر بنعمة الله تعالى، فعوقب بالاستدراج.

وكذلك ما قصَّه الله تعالى من أحوال أهل سبأ من جنات عن اليمين والشمال، فأمرهم أن يأكلوا من رزق ربهم، ويشكروا له، فأعرضوا فاستحقوا سُنَّةُ الاستدراج، وبدَّلهم الله ﷻ بجنتيهم جنتين من أكل خمط، وأثل، وسدر قليل، ثم عقَّب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ].

وكذلك استحق قارون وفرعون وهامان أَخْذَ الله تعالى لما تحقَّقت فيهم سُنَّةُ الاستدراج، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].

• انظرْ وتأمَّلْ وَتَدَبَّرْ هذه السُنَّةَ: يحكم حاكم مصر السابق البلادَ ثلاثين عامًا، ويحكم حاكم ليبيا السابق أكثر من أربعين عامًا،

وغيرهم من الحكام قد تعاقب عليهم أجيال وحكام، وعاصروا الآيات البينات، وشهدوا سنن الله تعالى وانتقامه العادل من سابقيهم « شاه إيران، وصدام حسين، وزين العابدين... »، وأمدهم الله تعالى بالمال والبنين، فاغتروا بحلم الله تعالى وصبره عليهم، فما تابوا ولا أنابوا، وما أصلحوا ولا تناصحوا، فحقت عليهم كلمة ربك صدقًا وعدلًا، ولا مبدل لكلماته، قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ٢٣﴾ [الفتح].

* * *

# وقفة
# إثبات وإلزام

• **تطول مدة الحاكم إذا كانت فيه أربع خصال:**

**الأولى:** ألا يرضَى للرعيَّة إلا ما يرضاه لنفسه.

**الثانية:** ألا يُسوِّف (يؤجِّل) عملًا يخاف عاقبته.

**الثالثة:** أن يجعل ولي عهده مَن ترضاه رعاياه، لا لأمرٍ تهواه نفسه.

**الرابعة:** أن يفحص عن الرعيَّة فحص المرضعة عن منام رضيعها.

• قيل لبعض الحكماء: ما شيء واحد يُعَزُّ به السلطان؟

قال: الطاعة.

قيل: فما مِلاك الطاعة؟

قال: التودُّد إلى الخاصة، والعدل على العامة.

• قالوا الحكم قسمان: إثبات وإلزام.

فالإثبات يعتمد الصدق، والإلزام يعتمد العدل.

قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (الأنعام: ١١٥).

• لا سياسة إلا ما وافق الشرع.

والسياسة فعل يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد.

## ٣- سُنَّةُ العِز والإذلال:

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران].

• المَلِكُ الحق: هو الله وحده، الذي يدوم سلطانه وملكه، وله العظمة والكبرياء وحدَه. ومُلْكُ غيره لا يدوم، حيث يَعتري أصحابَهُ النقائصُ والأمراض والسِّنون.

من أقامه بالعدل الذي يُرضي الملك الواحد القهار أظله الله تعالى في ظله، وجعله في كَنَفه، وأسعده وأسعد به.

وإن أقامه بالهَوَى هَوَى به في مكان سحيق، لا قوةَ له ولا ناصرَ، ونال غضبه وسخطه وعقابه.

• فالمالك الحقيقي للملك هو الله ﷻ، يمنحه لمن يشاء، وينزعه ممن يشاء، كيفما شاء، وقتما شاء، يؤتيه بالعِزَّة تارةً، وبالقتال أخرى، وبالرحمة والمحبة أحيانًا، يؤتي الملك من يشاء، بالكيفيَّة التي يشاؤها ﷻ.

• وما دام الله ﷻ هو الذي يؤتي الملك من يشاء فكأني أرى أن الحاكم أو الأمير أو الملك أو الرئيس أو الوزير الذي آتاه الله الملك إنما

هو مُعيَّنٌ من قِبَلِ الله ﷻ لتنفيذ أحكام الله في عباده، مُوَكَّلًا منه في المحافظة على إقامة العدل، وحفظ حقوق العباد، قال الله تعالى:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص:٢٦]، وقال لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية].

• فحقيقة الملك والرئاسة رَاجِعَة إِلَى النِّيَابَة عَن الشَّارِع فِي حفظ الدّين وسياسة الدُّنْيَا بِهِ، وَيُسمى بِاعْتِبَار هَذِه خلَافَةً وإمامةً، أي أنه يحرس الدين من محذور تبديله وتغييره، وإذا عَرِيَ السلطان عن الدين كان قهرًا، ومفسدًا للدهر .

كما أن السلطان هو المسؤول عن ضمِّ الأمة وجمع كلمتها.

كما رُوِيَ عن ابن عمر مرفوعًا: { السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الأَرْضِ يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ مَظْلُومٍ مِنْ عِبَادِهِ، فَإِنْ عَدَلَ كَانَ لَهُ الأَجْرُ، وَكان يَعْنِي عَلَى الرَّعِيَّةِ الشُّكْرُ، وَإِن جَارَ، أَوْ حَافَ، أَوْ ظَلَمَ كَانَ عَلَيْهِ الْوِزْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الصَّبْرُ، وَإِذَا جَارَتِ الْوُلاةُ قَحَطَتِ السَّمَاءُ، وَإِذَا مُنِعَتِ الزَّكَاةُ هَلَكَتِ الْمَوَاشِي، وَإِذَا ظَهَرَ الزِّنَا ظَهَرَ الْفَقْرُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَإِذَا خُفِرَتِ

الذِّمَّةُ أُدِيلَ لِلْكُفَّارِ }(١).

• والسلطان هو الكفيل بإنجاز ما ورد به الوعد الصادق من ظهور دين الحق على الدين كله، وبلوغ ملك الأمة به ما زُوِيَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مشارق الأرض ومغاربها، بما يوفِّره من الجهد والمال والرجال والعتاد لنشر هذه الدعوة الإسلاميَّة، لا لوَأْدِهَا، كما فعل طغاة حكام المسلمين اليوم.

قال أبو عبد الله ابن الأرزق: « إنَّ مِنْ عَلامَةِ الْمُلْكِ التنافسَ فِي الْخِلال الحميدة وَبِالْعَكْسِ، وَذَلِكَ لِأَن الْملك خَليفَة الله على الْعباد فِي تَنْفِيذ أَحْكَامه الَّتِي هِيَ خير وصَلَاح وإبطال أَحْكَام الشَّيْطَان الَّتِي هِيَ شَرٌّ وَفَسَاد ... وإِذا أَذن الله بانقراض الْملك حملهمْ على ارْتِكَاب المذمومات وانتحال الرذائل، فتُفقَدُ الْفَضَائِلُ السياسيَّةُ مِنْهُم جُملَةً. وَلَا تزَال فِي نقصٍ إِلَى أَن تخرج مِنْهُم لسواهم ليَكُون نعيمًا عَلَيْهِم فِي سَلْبِهِ وذهابِهِ.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء](٢).

---

(١) أخرجه البزار في مسنده، ح (٥٣٨٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، ح (٦٩٨٤).

(٢) بدائع السلك في طبائع الملك، شمس الدين ابن الأزرق الغرناطي (١/ ١٢٥-١٢٦).

• لذلك اشترط العلماء والفقهاء عِدَّة شروط ضروريَّة لمن يتولى الإمارة أو الوزارة: ( حتى تكون علامات على العِزَّة التي وهبها الله تعالى لهم ) وهي:

١- **الفضائل،** ومنها: [ العلم، وجودة الفهم، والذكاء والفطنة، وقوة الحفظ، والمعرفة بالمصالح والمفاسد، والحنكة والتجربة، والصبر على تحمُّل مهامِّ الرئاسة عن سعة الصدر، وقوة العزيمة، وحبّ العدل وأهله، ورحمة الخلق، والنزاهة والعفة، وطهارة القلب واليد، وحسن المعاملة بسماحة الخلق، ولين الجانب، وسهولة اللقاء، والتواضع، وعلو الهمَّة، واعتدال الخلق والسيرة ].

٢- **كمالات البدن،** ومنها: [ تمام الأعضاء، وجمال الوجه وبهاؤه، وخصوصًا مع البِشْرِ، والحياء، وصدق اللسان، وحسن العبارة، والفروسيَّة ليحسن به مع الشجاعة، وظهور أثر العفَّة عليه].

٣- **أسس أخلاقيَّة لابد منها،** وهي: [ شرف البيت، وكرم المنشأ، أمانة بطانته، حُسن الملبس وتواضعه، إباحة مجلسه لذوي المقاصد والحاجات، استواء ليله ونهاره في تدبير أمور الرعيَّة ].

٤-**بُعْدُهُ عن:** [ اللؤم، لأن اللئيم إذا ارتفع جَفَا، والمحسوبيَّة

وعن تعيين ذوي القرابة دون مراعاة الأمانة والخبرة، وعن تنفير القلوب حوله بعدم المشاورة في الأمر، وعن الظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وعن التدخل في شؤون القضاء ].

• وإنما تفضل الملوك والرؤساء على مقدار خدمتهم لشريعتهم، ويكون نقصهم على قدر إغفالهم لها.

• **قال ابنُ المُقَفَّع**: « المُلُوك ثَلَاثَةٌ: مَلِكُ دينٍ، ومَلِكُ حَزْمٍ، وَمَلِكُ هَوًى.

• **فَأَما مَلِكُ الدِّينِ**: فَإِنَّهُ إِذا أَقَامَ للرعية دينهم فَكَانَ دينهم هُوَ الَّذِي يعطيهم الَّذِي لَهُم، وَيلْحق بهم الَّذِي عَلَيْهِم أرضاهم ذَلِك، وَأنزل الساخط مِنْهُم منزلَة الراضي فِي الْإِقْرَار وَالتَّسْلِيم.

• وَأما مَلِكُ الحَزم: فَإِنَّهُ تقوم بِهِ الْأُمُور وَلَا يَسلَم من الطعْن والسخط، وَلنْ يضر طعن الذيل مَعَ حزم القوي.

• وَأما مَلِكُ الْهَوَى فلَعِبُ سَاعَةٍ، ودَمارُ دَهْرٍ»(١).

• وقال أصحاب الحكمة: « المُلْكُ بَيت أُسُّه الْإِيمَان، وسقفه التَّقْوَى، وأركانه الشَّرَائِع، وفرشه الْعدْل، وأستاره السِّير المحمودة، فَإِذا قعد فِيهِ الْمَلِكُ ابتهجت بِهِ الدُّنْيَا، وتألَّفت بِهِ النُّفُوس، وعمرت بِهِ

---

(١) بدائع السلك في صنائع الملك (١/ ١٩٣).

الْبِلَاد، وَشَمِل الصَّلاحُ الْعبادَ».

• ومن مهامِّ (الملك أو الرئيس): حفظ الضروريات الخمس المتفق عليها في جميع الشرائع وهي: [الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال].

• وأولى المهمَّات للحكَّام بعد حفظ الدين: إقامةُ العدل، حيث لا عمارة إلا بالعَدل، وإذا أعزَّ الله ﷻ حاكمًا وفَّقَهُ لإقامة العدل.

## •• ومن فوائد إقامة العدل:

**أولا: الفوائد الدينيَّة:** ومنها: **المسابقة إلى المحبة من الله تعالى.**

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى الله يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى الله، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ }**(١).

ومنها: **استحقاقه التقدُّم على من يظلُّهم الله في ظلِّ عرشه يوم القيامة.**

• عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **{ سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا**

---

(١) أخرجه أحمد، ح (١١١٧٤)، والترمذي: أبواب الأحكام، ب: ما جاء في الإمام العادل، ح (١٣٢٩)، وقال: حسن غريب، وضعَّفه الألباني.

عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ }(١).

• ومنها: استحقاق العُلُوِّ به على منابر من نور عن يمين الرحمن ﷻ،

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا }(٢).

• ومنها: إجابة الدعاء. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالإِمَامُ العَادِلُ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ }(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: ك: الأذان، ب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ح (٦٦٠)، ومسلم: ك: الزكاة، ب: فضل إخفاء الصدقة، ح (١٠٣١).

(٢) أخرجه مسلم: ك: الإمارة، ب: فضيلة الإمام العادل، ح (١٨٢٧).

(٣) أخرجه أحمد، ح (٨٠٤٣)، والترمذي: أبواب الدعوات، ح (٣٥٩٨)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه: ك: الصيام، ب: في الصائم لا ترد دعوته، ح (١٧٥٢). قال الألباني: ضعيف، وصحَّ منه شطره الأول، لكن بلفظ {المسافر}، وفي رواية {الوالد} مكان {الإمام}.

• ومنها: ضمان الجنة. عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: { أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، ... قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ ... }(١).

## ثانيًا: الفوائد الدنيويَّة:

• منها: ظهور رُجْحان العقل به.

قيل لبعض الحكماء: مَن أرجحُ الحكام عقلًا وأكملُهم أدبًا وفضلًا؟

قال: « مَن صحب أيامه بالعدل، وتحرَّز جهده من الجَوْرِ، ولقي الناس بالمجاملة، وعاملهم بالمسالمة، ولم يفارق السياسة، مع لين في الحكم وصلابة في الحق، فلا يأمن الجريء بطشه، ولا يخاف البريء سطوه ».

• وكمال النعمة بالعدل، لأن الجور إذا كان فاشيًا والعدل مطرحًا منكرًا، فتلك نعمة زائلة.

• ودوام الملك بإقامة العدل، ومِلكِ سرائر الرعيَّة، وقيامه في

---

(١) أخرجه مسلم: ك: صفة الجنة ونعيمها، ب: الصِّفَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ، ح (٢٨٦٥).

الأرض أنفع من المطر، فسلطان عادل خير من مطر وابل.

•• **ومن علامات إذلال الله تعالى للحكام: حكمُهم بالظلم.**

**ونقيض العدل**: الجور والظلم، وعليه شدة العذاب يوم القيامة.

• وَقَالَ طَاوُوس لِسُلَيْمَان بن عبد الْملك هَل تَدْرِي يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ من أَشدُّ النَّاس عذَابًا يَوْم الْقِيَامَة؟ فَقَالَ سُلَيْمَان: قل. فَقَالَ طَاوُوس: «أَشد النَّاس عذَابا يَوْم الْقِيَامَة من أشركه الله فِي ملكه فجار فِي حكمه» فاستلقى سُلَيْمَان على سَرِيره وَهُوَ يبكي فَمَا زَالَ يبكي حَتَّى قَامَ عَنهُ جُلَسَاؤُهُ(١).

• والحاكم الجائر يأتي يوم القيامة، ويده مغلولة إلى عنقه، وعليه لعنة الله وملائكته والناس أجمعين، ويُحرَمُ من شفاعة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي لَا يَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي: سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَآخَرُ غَالٍ فِي الدِّينِ مَارِقٌ مِنْهُ }**(٢).

•• **ومن مفاسد ظلم الحكام الدنيويَّة:** فوات الطاعة والمحبة له من شعبه، وفناء كرامته وهيبته، وتقصير مدة حكمه،

---

(١) حسن السلوك الحافظ دولة الملوك، لشمس الدين ابن الموصلي، ص (٦٣).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٤٩٦)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٩٨).

وشدة الخوف بسببه، فلا يشعر بالأمان، ويكثر من حرسه وَحُجَّابه وأبوابه، وقد يذهب الرزق بشؤمه برًّا وبحرًا، فالبركة ترتفع بمجرد نيَّة الظلم، فكيف بالفعل ؟!

• قال الطرطوشي: « وَشهِدت أَنا بالإسكندرية وَالصَّيْد فِي الخليج مُطلق للرعية والسمك فِيهِ يغلي المَاء بِكَثْرَة ويصيده الْأَطْفَال بالخرق، ثمَّ حجره السُّلْطَان، وَمنع النَّاس من صَيْده، فَذهب السّمك مِنْهُ حَتَّى لَا يكَاد يُوجد فِيهِ إِلَّا وَاحِدَة بعد وَاحِدَة إِلَى يَوْمنَا هَذَا! »(١).

• ولما كانت العِزَّة مرتبطة بالإيمان، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[المنافقون:٨]، كان من العِزَّة عدل الحكام.

### ٥- إقامة الصلاة:

قال ابن العربي: « هي أصل في نفسها، وفرع للإمارة ».

وقال القرافي: « هي شرط في الإمامة، لا شتمالها على سياسة الأمة، ومعرفة معاقد الشريعة ».

• وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، لا سيما إذا أُعْطِيَتْ حقَّها من تكميل الطهارة ظاهرًا وباطنًا، فما اسْتُدْفِعَتْ شرورُ الدَارَيْنِ

---

(١) بدائع السلك في صنائع الملك (١/ ٢٣٥).

ولا اسْتُجْلِبَتْ مصالحها بمثل الصلاة، وسِرُّ ذلك أنها صلة بالله تعالى، فعلى قدر صلة العبد بالله يفتح عليه من الخيرات أبوابها، ويدفع عنه من الشرور أسبابها.

• والصلاة لها أثر عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقوامهما، ودفع المواد الرديَّة عنها، وما ابْتُلِيَ رجلان بعاهة أو أذىً أو منحة أو بليَّة إلا وكان حظ المصلي منها أقل، وعاقبته أسلم.

• قال ابن خلدون: « فلمَّا جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والتّرفُّع عن مساواة النّاس في دينهم ودنياهم استنابوا في الصّلاة، فكانوا يستأثرون بها في الأحيان، وفي الصَّلوات العامّة كالعيدين والجمعة إشارة وتنويهًا »(١).

• **ومن العِزَّة للحكام**: اهتمامهم بالفُتيا، لأن صاحبها قائم في الأمة مقام النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

• قال ابن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان شروط المفتي: « أن يكون مكلَّفًا مسلمًا، ثقة مأمونًا، متنزهًا من أسباب الفسق ومسقطات المروءة ...، ويكون فقيه النفس، سليم الذهن، رصين الفكر، صحيح

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ٢٧٤).

التصرف والاستنباط، مستيقظًا »[١].

• ولابد للمفتي أن يكون بعيدًا عن الأغراض الفاسدة، وتتبع الحيل الممنوعة، والتمسك بالشبه طلبًا للترخُّص على من يريد نفعه، أو التغليظ على من يقصد ضرَّه، ومن فعل ذلك فقد هان عليه دينه[٢].

**٦- الاهتمام بالعلم والتدريس وبالعلماء،** فهم منارة دولته، وعليهم مدار حضارته، ودوام ملكه، وصلاح رعيته.

**٧- الاهتمام بالقضاء:**

• وحَقِيقَةُ الْقَضَاءِ الْإِخْبَارُ عَنْ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْزَامِ ، وَفِي الْمُدْخَلِ لِابْنِ طَلْحَةَ الْأَنْدَلُسِيِّ: الْقَضَاءُ: مَعْنَاهُ الدُّخُولُ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْخَلْقِ لِيُؤَدِّيَ فِيهِمْ أَوَامِرَهُ وَأَحْكَامَهُ بِوَاسِطَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ [٣].

• وذلك لحفظ النظام، ودفع الضَّرر، وقمع الظالم، ونصر المظلوم، وقطع الخصومات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويختار لهذا المقام أهل الدين والفضل والورع والعلم. والمسامحة

---

(١) أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح الشهرزوري، ص (٨٥- ٨٦).

(٢) انظر: المصدر السابق، ص (١١١).

(٣) انظر: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، لابن فرحون المالكي (١/ ١١).

فيه مضرَّة بالدين والملك، ويعزل من في بقائه مفسدة وجوبًا فوريًا.

• هذه سنة العِزِّ، يعز من يشاء بطاعته له، ويذل من يشاء بمعصيته له؛ فسبحان الملك المعِزِّ المُذِلِّ، الذي كتب العِزَّة له ولرسوله وللمؤمنين، وكتب الذُّلَّ والصَّغارَ على من خالف أمره.

وإذا أردت أن تتدبر هذه السنة فاعتبر بكل من أذلة الله بعد طغيان وكبر، وتأمل في كل من أعزه الله تعالى بعد ضيق وكرب!

وقصص القرآن والسنة، ووقائع التاريخ أصدق برهان على ذلك. فلا عزة لحاكم المسلمين إلا بإقامة الدين، وتحقيق الإيمان على أرض الواقع، وإقامة العدل بين الناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾[النحل]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾[النساء].

* * *

# وقفة
## فريضة محكمة، وسُنَّة متبعة

كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما ولاه قضاء الكوفة: «من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك! أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة وسُنَّة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، وأنفذ إذا تبين لك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. وآسِ بين الناس بوجهك، وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حَيْفك، ولا ييأس ضعيف في عدلك، البينة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحلَّ حرامًا أو حرَّم حلالًا، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعت اليوم فيه عقلك، وهديت فيه إلى رشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سُنَّة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، وقِسْ الأمور عند ذلك بنظائرها، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادَّعى حقًّا غائبًا، أو بينة أمدًا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذت له بحقه، وإلا وجهت القضاء عليه؛ فإنه أنفى للشك وأجلى للعَمَى، المسلمون عُدول بعضُهم على بعض، إلا مجلودًا في حدٍّ، أو مجرَّبًا عليه شهادة زور، أو ظَنينًا في ولاء أو نسب؛ فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر، ودرأ بالبينات والأيمان، وإياكم والقلق، والضجر والتأذي بالخصوم، والتنكر عند الخصومات؛ فإن استقرار الحق في مواطن الحق يُعظِمُ الله به الأجر، ويُحسِن به الذكر، فمن صحَّتْ نيَّتُه وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلَّق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانَهُ الله، فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته! والسلام».

## ٤- سنة البَعثرة:

قال الله تعالى مبيِّنًا ندم أصحاب السلطان وأرباب الأموال من أهل النار: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩ ﴾ [الحاقة]، وقال تعالى حاكيًا عن نموذج من نماذج الفساد المالي مع الهيبة والسلطان من أمثال قارون: ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ۝٨١ ﴾[القصص]، ومن أمثال أبي لهب: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾ [المسد].

وقال الشاعر فيمن جمع المال من حلال وحرام فأضاعه وبعثره:

جَمَعَ الحَرامَ على الحَلالِ لِيُكثِرَه  دخلَ الحرامُ على الحلالِ فَبَعْثَرَه

• انظر إلى بعض النماذج من جرائم المتنفِّذين والمستبدِّين، فإنهم:

١- جمعوا الأموال الطائلة من حلال وحرام حتى بلغت المليارات.

٢- متهمون بالخيانة العظمى في وضع هذه الأموال وتهريبها في مصارف أوربا وأمريكا وغيرها، حتى لا تستفيد منها شعوبهم، وهي في الحقيقة من أموال الشعب.

٣- خانوا القَسَمَ الذي أقسموه عند توليِّهم المناصب، وكأنه يشبه

اليمين الغَموس التي تغمس صاحبها في نار جهنم.

٤- لم يقوموا بسداد أصل ديون بلادهم، وتسبَّبوا في غلاء الأسعار، طالبين من شعوبهم شدَّ الأحزمة على البطون، وتحديد النسل لقلة الموارد !

٥- تعاملوا بالرِّبا، وحاربوا الله ﷻ، فحقَّت عليهم سنة الله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

٦-احتكروا الصناعة والتجارة مخالفين دينهم ووطنيَّتَهم، وحتى القوانين التي شرعوها لغيرهم.

٧-كذبوا على شعوبهم، ومن قبل على ربِّهم جلَّ وعلا، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾[الزمر: ٦٠].

٨- هم نماذج من الغنى السافل الذي جمع المال بنَهَمٍ وكَدٍّ وصِراعٍ، ثم الآن يعيش في نكد وحسرة لفقده وحرمانه منه. ولذلك:

١- فإنهم يحق عليهم حدُّ السَّارق والسَّارقة، ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ وهذه السَّرِقَةُ من كبائر الذنوب.

٢- النارُ أولى بهم، لقول النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ

نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ }(١).

• إنها **سنة البعثرة**، والتي تتحقق لكل طمَّاع لا يشبع، أو محتكر مستغلٍّ لا يملأ عينَه إلا الترابُ، أو غاشٍّ أو آكلٍ لأموال الناس بالباطل، أو سارق من ميراث أسرته، أو صاحب غُلول من غنيمة، أو مُرْتَشٍ، أو جامع أموال من هدايا العُمَّال، وغيرهم ممن سلك طريق الحرام.

• وكثيرًا ما كنت أقول: كيف يتوب الناس من المال الحرام، وقد نبتت به لحومهم، وتزوَّج به أولادهم؟! وأين هؤلاء وسُمْعَتُهُم وشرفُهم عند أقاربهم وعائلاتهم وأقوامهم ؟!

• وأين هم من قول الذين تمنَّوا ماعليه قارون بقولهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾[القصص]، وقولهم بعد الخسف به وبأمواله وداره: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[القصص].

إنها والله «سنة الخَسْف» لكل من اغترَّ بماله واعتمد عليه، أو على سلطانه.

• وأين هم من أقسام الناس الأربعة من جهة كسب المال:

---

(١) أخرجه أحمد، ح (١٤٤٤١)، والترمذي: أبواب السفر ، ب: ما ذكر في فضل الصلاة، ح (٦١٤)، وقال: حسن غريب.

**الأول**: كَسَبَهُ مِنْ حَرَامٍ، وأَنْفَقَهُ في حَرامٍ، فالنارُ أولَى بهِ.

**الثاني**: كَسَبَهُ مِنْ حَرَامٍ، وأَنْفَقَهُ في حَلالٍ، فالنارُ أولَى بهِ أيضًا.

**الثالث**: كَسَبَهُ مِنْ حَلالٍ، وأَنْفَقَهُ في حَرامٍ، فالنارُ أولَى بهِ أيضًا.

**الرابع**: كَسَبَهُ مِنْ حَلالٍ، وأَنْفَقَهُ في حَلالٍ، وهذا يقف للحساب بين يدي الله ﷻ يُسأل عن:

- هَلْ أَدَّى زَكاةَ هذا المالِ، أمْ كَنَزَهُ ؟!
- هَلْ أَدَّى حقَّ السائلِ والمحرومِ ؟!
- هَلْ وصلَ به أرحامَهُ، أمْ تَكَبَّرَ وطغَى عليهم ؟!
- هَلْ شَحَّ أو بَخِلَ بهِ، أو اغتَرَّ ؟!
- هَلْ ضيَّع مَنْ يَعُولُ؟!

• إن أعظم مباني الملك وقواعد أصوله: «حفظ المال»، فالمال حصن السلطان، ومادة الملك.

• وفساد المال يرجع إلى فساد الحكم، وسوء تدبيره، وفرض الضرائب (المكوس)، وكثرة نفقة السلطان في خاصته، وانغماسه في نعيم الترف وعوائد الحضارة.

**•• ومن أعظم الآفات المُضِرَّة بالرعيَّة المفسدة لها:**

- «تجارة السلطان» ومضايقة الفلاحين بالضرائب والقروض، واحتكار إنتاجهم.

• عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كتب لبعض عماله: « إن تجارة الولاة لهم مفسدة، وللرعيَّة مهلكة، فامنعْ نفسك ومن قَبلك عن ذلك »(١).

• وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: « من أَشْرَاط السَّاعَة تِجَارَة السُّلْطَان »(٢).

• وقال ابن خلدون: « وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتِّجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلِّبين في البلدان أنَّهم يتعرَّضون لشراء الغلَّات والسِّلع من أربابها الواردين على بلدهم، ويفرضون لذلك من الثَّمن ما يشاءون، ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرَّعايا بما يفرضون من الثَّمن، وهذه أشدُّ من الأولى، وأقرب إلى فساد الرَّعِيَّة واختلال أحوالهم »(٣).

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك (١/ ٢١٠).
(٢) المصدر السابق (١/ ٢١٠).
(٣) تاريخ ابن خلدون (١/ ٣٤٩).

وفي الأثر: « أيما وال تاجر في رعيته فقد هلكت رعيتُهُ ».

وكان هذا مما يؤدي إلى سنة البعثرة، ولن نجد لسنت الله تبديلًا.

**•• ومما يؤدي إلى سنة البعثرة للحُكام أيضًا:**

**• استظهار الحاكم على شعبه وقومه بمن هم من غير جلدتهم:**

قال ابن خلدون: « وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدَّولة، وعلامة على المرض المزمن فيها، لفساد العصبيَّة الّتي كان بناء الغَلَبِ عليها. ومرض قلوب أهل الدَّولة حينئذ من الامتهان وعداوة السُّلطان فيضطغنون عليه ويتربَّصون به الدَّوائر، ويعود وبال ذلك على الدَّولة، ولا يطمع في برئها من هذا الدَّاء، لأنَّه ما مضى يتأكد في الأعقاب إلى أن يذهب رسمها. واعتبِرْ ذلك في دولة بني أميَّة كيف كانوا إنَّما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب ... وكذا صدر من دولة بني العبَّاس كان الاستظهار فيها أيضا برجالات العرب. فلمَّا صارت الدَّولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التَّطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصَّنائع من البرامكة، وبني سهل بن نوبخت، وبني طاهر، ثمّ بني بويه، وموالي التّرك، ... وغير هؤلاء من موالي العجم، فتكون الدَّولة لغير مَن مهَّدها، والعزُّ

لغير من اجتلبه. سنَّة الله في عباده، والله تعالى أعلم »[١].

• وكثيرًا ما يقع في الدولة اضطراب، ويرتفع بسبب غلبة كثير من السفلة والفسقة.

• **والأصل: أن القائمين على الحكم والوزراء والقضاة والعلماء وأصحاب الفتيا والتدريس والإمامة والخطابة، ونحو ذلك، لا تعظم ثروتهم غالبًا، وذلك لأمور منها:**

**١**- أن الكسب قيمة الأعمال، وأعمال هؤلاء رواتبهم من الدولة.

**٢**- أنهم لشرف بضاعتهم يجب أن يكونوا أعزَّة على الخلق وعند أنفسهم، فلا يخضعون لأهل الجاه، ولا يسعهم التذلل لأهل الدنيا، فيفوتهم بذلك حظ عظيم من وجوه التحوُّل.

**٣**- أنهم لما هُمْ فيه من الشغل بهذه الصَّنائع الشريفة المشتملة على الفكر والبدن، لا تفرغ أوقاتهم للمساعي العائدة بإدرار الأرزاق، فلذلك لا تعظم ثروتهم غالبًا.

فَتَأَمَّلْ سُنَنَ الله ﷻ، وتدبَّرْها، فالاعتبار بالسنن خيرٌ لهؤلاء من إهمالها والتغافل عنها.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٣٠).

## وقفة
## في الظلم وسوء عاقبته

• قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم] .

قال ميمون بن مهران: « كفى بهذه الآية وعيدًا للظالم، وتعزية للمظلوم ».

قال كعبٌ لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « في التوراة: « **من يَظلِمْ يُخربْ بيتُهُ**». فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا ﴾ [النمل:٥٢] »، فالظلم أدعى شيء إلى سلب النِّعَمِ وحلول النِّقَمِ.

• وهو حرامٌ في الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

ففي الحديث القدسي: { **يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**} رواه مسلم (٢٥٧٧).

• من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبَّ أن يُعْصَى اللهُ سبحانَهُ.

• عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: { **الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ** }.

رواه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩)

• وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ }**.

رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

• وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ }** رواه البخاري (٢٤٤٩).

• عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ}** قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود]. رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

• وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: إِنَّ الظَّالِمَ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: « **بَلَى وَاللهِ، إِنَّ الْحُبَارَى لَتَمُوتُ فِي وَكْرِهَا هُزَالًا لَظُلْمِ الظَّالِمِ**» الطبري في تفسيره (١٧/ ٢٣١).

لا تَظْلِمَنَّ إذا ما كُنْتَ مُقْتَـدِرًا  فالظُّلْمُ تَرْجِعُ عُقْباهُ إلَى النَّدَمِ
تَنامُ عَيْنُكَ والمَظْـلومُ مُنْتَصِبٌ  يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَـمِ

• قال عبد السلام بن سعيد التنوخي القاضي: « ما هِبْتُ شيئًا قطُّ هيبتي رجلًا ظلمتُهُ، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول لي: حسيبك الله، الله بيني وبينك ».

وقال بلال بن سعد - أحد العلماء في عهد هشام بن عبد الملك: « **اتقوا الله فيمن لا ناصر له إلا الله** ».

• وبكى عليُّ بن الفُضيل يومًا، فقيل له: مايبكيك؟ فقال: «أبكي على من ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حُجةٌ ».

• عن هشام بن حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: { **إنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا** } رواه مسلم ح (٢٦١٣).

• وقال بعض الحكماء: « أفقر الناس أكثرهم كسبًا من حرام، لأنه استدان بالظلم ما لابد له من رده »، وفي حديث المفْلس عظة وعبرة.

❊ ❊ ❊

## ٥- سنة من اغتر بماله ذلَّ سلطانه:

فمن اعتمد على حاشيته وجنوده وأمواله لم تُغْن عنه من الله شيئًا.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة:٢٥].

ومن لم يقبل النصح من هؤلاء المغرورين عندما يقدِّمه له أهل العلم والصلاح فلا يلومنَّ إلا نفسه، ولابد من أن يذلَّه الله تعالى يومًا ما، وهو بين حاشيته وجنوده وأمواله وقصوره.

• فمن اعتمد على ماله قلَّ، ومن اعتمد على جاهه ذلَّ، ومن اعتمد على عقله اختلَّ، ومن اعتمد على الله ﷻ لا قلَّ، ولا ذلَّ، ولا اختلَّ.

• والغُرور والعُجْب والكِبْرُ من الآفات القاتلة التي لا يدوم معها مُلْكٌ ولا حُكْمٌ، لذلك قالوا: « ومن أعجب العجائب دوام الملك مع الكبر والإعجاب ».

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يهلك السلطان بالإعجاب والاحتجاب، والغُرور الناتج عن العُجب من الثلاث المُهلِكات، وهنَّ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوىً متَّبَعٌ، وإعجاب المرء بنفسه ».

• ومما يُحدِثُ التيهَ للحكام والملوك في أنفسهم، والإعجابَ بآرائهم والغُرورَ بما لديهم: كثرةُ ما يسمعونه من ثناء الناس عليهم، ولو أنهم أنصفوهم أو صَدَقوهُم عن أنفسهم لأبْصروا الحق، ولم يَخْفَ عليهم شيءٌ من أنفسهم.

• ولنا في الحَجَّاج عِبرة وعِظة، فقد ولي الإمارةَ وما عربيٌّ أحسن أدبًا منه، فطالت مدة ولايته، فكان لا يَسمَع إلا ما يُحِبُّ، فمات وإنه لأحمق سيء الأخلاق والأدب، ولعل الراجح توبته وحسن خاتمته، وقد سَمِعَ ابْنُ سِيرِينَ رَجُلًا يَسُبُّ الْحَجَّاجَ ، فَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إِنَّ اللهَ حَكَمٌ عَدْلٌ، يَأْخُذُ لِلْحَجَّاجِ مِمَّنْ ظَلَمَهُ، كَمَا يَأْخُذُ لِمَنْ ظُلِمَ مِنَ الْحَجَّاجِ »(١).

• وآفة الغُرور والتي سببها الكبر والعُجب تحجب التوفيق والتأييد من الله تعالى لإصلاح صاحبه، وما أسرع الهلاك إذا انقطع عن العبد التوفيق، وهو مُفْسِدٌ للعمل الصالح، فكم من عابد أو صالح أفسده العُجب، وهو يمنع من الاستفادة والاستشارة.

• قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وَرُبَّمَا يُعْجَبُ بِالرَّأْيِ الْخَطَأِ الَّذِي خَطَرَ لَهُ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٩١)، رقم (٣٠٥٨٥).

فَيَفْرَحُ بِكَوْنِهِ مِنْ خَوَاطِرِهِ، وَلَا يَفْرَحُ بِخَوَاطِرِ غَيْرِهِ فَيُصِرُّ عَلَيْهِ، وَلَا يسمع نصح، وَلَا وَعْظَ وَاعِظٍ » (١).

• **ومن آفاته**: أن يفتر فِي السَّعْيِ لِظَنِّهِ أَنَّهُ قَدْ فَازَ، وَأَنَّهُ قد استغنى، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه.

• والعُجب فرحة في النفس، بإضافة العمل إليها، وحمدها عليه، مع نسيان أن الله تعالى هو المنعم به، والمتفضِّل بالتوفيق إليه، مثل قارون الذي قال عن سبب غِناهُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾. فنصحه أهل العلم من قومه بقولهم: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص].

• **وأعظم آفاته**: أنه مضادٌّ للتوكُّل على الله ﷻ، والاعتماد إليه، ويورث صاحبَه الأمنَ من مكر الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٧٠).

• فاغترَّ كثيرٌ من حكام العرب والمسلمين بما لديهم من أموال وجنود وأتباع ومقرَّبين، فاطْمأنُّوا واغترُّوا، فحقَّتْ عليهم سُنَّةُ الله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الفتح].

فما أغنت عنهم أموالهم، وهلك عنهم سلطانهم، ولم يجدوا لهم وليًّا ولا نصيرًا، وكان الخزيُ والعارُ ملاحِقًا لهم، والذكر السَّيِّئُ بعد رحيلهم ملاحقًا لهم ولذريتهم، وغضبه ومقته ينتظرهم مع الحساب غير اليسير، جزاءً وفاقًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

***

## وقفة
## كل ابن آدم خطاء

والعُجب والغُرور أنواع، منها:

• انخداعه بسراب النعم، وانشغاله عن النظر في بدء خلقه إلى ما يصير إليه، واستعظامه بالقوة مع نِسيان شكرها، وترك الاعتماد على خالقها، كقول عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، ونسيانه بمطالبته الشكر عليها، وأنها معرَّضة للسَّلَبِ، فيصبح أضعف العباد.

• افتخاره بالعقل والكياسة استحسانًا له، واستبدادًا به، ونسيانه ما فُعِل بغيره، وأنه وإن اتَّسع العلم والملك فما أوتي إلا قليلًا.

• افتخاره بالنَّسَب، واعتقاد الفضل به على كثير من الناس، ونسيانه أنه لا يجلب ثوابًا، ولا يدفع عقابًا، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم له.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ}**.

**رواه مسلم (٢٦٩٩).**

• انتماؤه إلى ظلمة الحاكم والملوك، وفسقة أعوانهم تشرُّفًا بهم فيما يتوهم، ونسيانه مع أي الفريقين سيكون عندما يُنادِي المُنَادي: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾[الشورى].

وهو غاية الجهل، مما يجعلهم لا يفكِّرون في مخازيهم ومقتهم عند الله تعالى.

• افتخاره بالأتباع، اعتمادًا عليهم، ونسيانًا للتوكل على ربِّ الأرباب، ونسيانه أن النصر من عند الله تعالى، وأن الكثرة لا تُغني عند حلول القضاء ونزول البلاء.

• اعتداده بهذا المال، ونسيانه أن المال فتنةٌ، وأن له آفات متعددةً.

• توهُّمه أن ما هو عليه هو الصواب دائمًا.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[فاطر: ٨].

لذلك هم ينسون أنهم من جملة البشر الواقع منهم الخطأ كثيرًا، وأن كل ابن آدم خَطَّاء، وأن خير الخطَّائين التوَّابون.

❊ ❊ ❊

٦- **سنة إنصاف الله تعالى لعبده المظلوم**، وإجابة دعوته ولو بعد حين، ( وكما تدين تدان ):

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{.. وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الْغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ }**(١).

• قال يوسف بن أسباط - وهو من علماء القرن الثاني الهجري -: «توفي رجل من الحواريين أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فوجدوا عليه وجدًا شديدًا، وشكَوا ذلك إلى المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فوقف على قبره ودعا، فأحياه الله تعالى وفي رجليه نعلان من نار، فسأله عيسى عن ذلك، فقال: والله ما عصيت قط، إلا أني مررت بمظلوم فلم أنصرْه، فتنعلتُ هذين النعلين »(٢).

قال أبو العتاهيَّة:

أما والله إن الظلْم لؤمٌ ... ولكن المُسيء هو الظلُومُ
إلى ديَّان يَوْم الدين نَمْضي ... وعنْدَ الله تَجْتَمعْ الخُصُومُ
سَل الأيامَ عَنْ أُمَم تَقَضتْ ... فَتُخْبرُكَ المَعَالمُ وَالرسُومُ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سراج الملوك، لأبي بكر الطرطوشي، ص (١٥٣).

• وفي السِّيَرِ: أن مَلِكًا أتَى بمعلم لولده، فعلَّمه حتى فاق في العلوم، فضربه المعلمُ يومًا من غير ذنب، فأوجعه، فلما تولَّى الولدُ المُلْكَ قال لمعلِّمه: ما حملك على ما صنعت من ضربي يومَ كذا ظلمًا ؟

قال: لما رأيتك ترغب العلم رجوتُ لك الملك بعد أبيك، فأحببتُ أن أذيقكَ طعمَ الظلم، لئلا تظلم، فقال له: أحسنت.

• وتأملت هذه السُّنَّة، وأنا أسمع أنين المظلومين ودعواهم وكيف تخرج عبارة : « **حسبنا الله ونعم الوكيل** » من قلوبهم.

فمنهم من اعتُقِل ظلمًا، ومنهم من اعتُدِي على أرضه ومخزنه، ومنهم من صُودِرَت أمواله، ومنهم من عانَى من زُوَّار الفجر، ومنهم من ضُيِّق عليه، ومنهم من طُرِدَ من عمله، ومنهم من لم يُقبَل أولاده في أي وظيفة مرموقة مع أنهم يستحقونها، ومنهم من صُودرت كُتُبه ومؤلفاتُهُ، حتى النوادي العامة مَنَعوا من دخولها مَن يرتدي زيًّا لا يوافق أهواءهم، وبعض الأماكن مُنِعَ من دخولها المحجبات والمنتقبات، مما لم يحدث في ديار الكافرين إلا قليلًا، فما بالك بديار المسلمين ؟!

قيَّدوا الحريات، واحتكروا الصناعات والتجارات، حتى غلا قوتُ الشعب، ونهبوا الثروات، وفرضوا الضرائب والإتاوات، وانتشرت الرشاوى والمحسوبية والفساد، وبيعت الأرض بأقل الأسعار، وتمَّ خصخصة الشركات لصالح المفسدين في الأرض، فَطُرِد العُمال، وتعطَّلت حركة الصناعات، وظهرت طبقةٌ في فترة وجيزة من المليارديرات، أشاعوا الفساد والشهوات، وانتشرت أعمال الفتوة والبلطجة، وعبثوا بالدين، وأساءوا إلى الدعاة والخطباء، حتى وصل العبث إلى الأزهر والأوقاف ودار الإفتاء، وصودِرَتْ أموال بعض التيارات الإسلاميَّة، واعْتُقِلَ كثيرٌ من أعضائها بلا ذنب ارتكبوه، أو إثم فعلوه، وأُغلِقتْ شركات استثمار الأموال التي أنعشت اقتصاد البلاد، وانتفع بها العباد، وصودرت أموالهم وممتلكاتهم، في حين استغل غير المسلمين هذه الفرصة فسرقوا ونهبوا، ومنهم من سرق المليارات وهرب، وقام الخونة وسَدَنَةُ النظام الفاسد السابق بإدارة أملاك هؤلاء، وعاد بعض هؤلاء اللصوص الخونة، واستُقْبِلُوا استقبال الفاتحين، وكأن شيئًا لم يكن.

إنها الانتكاسة والعبث، والاستبداد والاستعباد.

وراعي الشاةِ يدفعُ الذئبَ عنها فكيف إذا كان الرعاةُ لها ذئابا

ولكن برغم كل هذا فإن فرج الله قريب:

فهو سبحانه القائل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[النمل: ٦٢]، وقال ﷻ: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ ﴾[الشرح].

عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِ الله ﷻ: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا مَسْرُورًا فَرِحًا، وَهُوَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: { لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ } ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾(١).

وَكَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، يَذْكُرُ لَهُ جُمُوعًا مِنَ الرُّومِ وَمَا يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلْ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مُنْزَلِ شِدَّةٍ، يَجْعَلِ اللهُ بَعْدَهُ فَرَجًا. وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ. وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

(١) أخرجه الحاكم، ح (٣٩٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان، ح (٩٥٤١)، وهو من مراسيل الحسن البصري، وضعَّفه الألباني.

﴿٢٠٠﴾ » (١) [آل عمران].

وأنشد بعض الصالحين:

إن يكـن نـالك الزمَانُ ببلوَى ... عَظُمَتْ عندَهَا الخُطُوبُ وَجَلَّتْ

وَتَـلَـتْـهَـا قـوارِعُ نـاكِبَـاتٌ ... سُئِـمَتْ دُونَـهَا الحَيَـاةُ وَمُـلَّتْ

فاصْطَـبِرْ وانْتَظِرْ بُلُوغَ مَدَاهَا ... فَالـرَّزَايَـا إذا تَـوَالـتْ تَـوَلَّـتْ

وإذا أَوْهَنَـتْ قُواكَ وَجَـلَّتْ ... كُشِفَتْ عَـنْك جُمـلـةً فَـتَـجَـلَّتْ

* * *

(١) أخرجه مالك في الموطأ، ح (٦).

# وقفة
## إذن لا يضيعنا.

• انظر وتأمَّلْ وتدبَّرْ فرج الله تعالى، وثقة أهل الإيمان به، والذي تجلَّى في موقف السيدة «هاجر» **عليها السلام** أم إسماعيل، عندما وضعها خليل الرحمن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في صحراءَ جرداءَ، لا ماء فيها ولا نبات ولا إنسان ولا حيوان، فقالت له: «**آلله أمرك بهذا** ؟ فقال: «**نعم**» وانصرف. فقالت: « **إذنْ لا يُضَيِّعُنا**».

• وفي قصته مع الذبح، وثقته بأمر ربه، وتفضيله طاعة ربه حتى ولو كانت بذبح ولده، وتأمَّلْ قول ولده إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ له وهو صغيرٌ: ﴿**يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٢].

• وفي قصة يوسف الصديق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أرقى نموذج للفرج بعد الشدة، خرج من بلاده، وفُرِّق بينه وبين إخوانه وأبويه ووطنه، وتم بيعه بدارهم معدودة لعزيز مصر، وحَفِظَه عفافُه وحِلْمُه

وحكمتُه من كيد امرأة العزيز، فلبث في السجن بضع سنين.

ثم جاء الفرج، وصار عزيزًا مُكرَّمًا على خزائن مصر، فجمع الله شمله، وتكاملت النعمة عليه، وجاءه أبواه وإخوانه إلى مصر، ثم اشتاق إلى لقاء ربه، فقال:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

فلا أجملَ ولا أجلَّ في خصال الخير، ولا في أنواع الأعمال وإن عَظُمَتْ أعلى من حسن الظنِّ بالله تعالى.

أيها العَبْدُ كُنْ لما لست تَرْجو ... مَنْ نَجَاح أَرْجَى لَمَا أَنْتَ رَاج

إن مُوسَى مَضَى ليَقْبِسَ نَارًا ... مِنْ ضيَاء رآهُ والليْلُ دَاج

فأتى أهله وقد كلم اللهَ ... وناجاهُ وهْوَ خيْرُ مُناج

وَكَذَا الْكرْبُ كُلما اشْتَد بالْعَبْد ... دنتْ منهُ راحةُ الانْفرَاج

* * *

## ٧- سنة الصبر واليقين:

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[السجدة].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أَئِمَّةً يَأْتَمُّ بِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ لِصَبْرِهِمْ وَيَقِينِهِمْ؛ إذْ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ، فَإِنَّ الدَّاعِيَ إلَى الله تَعَالَى لَا يَتِمُّ لَهُ أَمْرُهُ إلَّا بِيَقِينِهِ لِلْحَقِّ الَّذِي يَدْعُو إلَيْهِ، وَبَصِيرَتِهِ بِهِ، وَصَبْرِهِ عَلَى تَنْفِيذِ الدَّعْوَةِ إلَى الله بِاحْتِمَالِ مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ، وَكَفِّ النَّفْسِ عَمَّا يُوهِنُ عَزْمَهُ وَيُضْعِفُ إرَادَتَهُ، فَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ كَانَ مِنْ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَهْدُونَ بِأَمْرِهِ تَعَالَى.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَقُّ، وَأَوْلَى بِهَذَا الْوَصْفِ مِنْ أَصْحَابِ مُوسَى، فَهُمْ أَكْمَلُ يَقِينًا، وَأَعْظَمُ صَبْرًا مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ، فَهُمْ أَوْلَى بِمَنْصِبِ هَذِهِ الْإِمَامَةِ »(١).

قال سفيان بن عيينة: «لما أخذوا برأس الأمر جعلهم الله رؤساء».

فالإمامة تحتاج إلى صبر ويقين. فمن كان صابرًا وعلى يقين وثقة بموعود الله سبحانه استحق أن يكون قدوة للناس.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ١٠٣).

• فالصبر زمام الخصال المحمودة، وزعيم الغُنْمِ والظَّفَرِ، ومِلاك كل فضيلة، وبه يُنال كلُّ خير ومكرمة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر].

• والصبر من عزم الأمور، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران].

• والصبر في المُلِمَّات من أمارات التوفيق، وعلامات السعادة.

• وفي الأثر: قال الله تعالى لداود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: { **ياداودُ، مَن صبرَ علينا وصَلَ إلينا** }(١).

• وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران].

أي: صابروا عدوكم، ورابطوا على الجهاد وإقامة الصلاة.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة]، فبدأ بالصبر قبل الصلاة، ثم منح الصابرين مِنحة المعيَّة والتأييد.

---

(١) سراج الملوك، لأبي بكر الطرطوشي، ص (٩٧).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ** }(١).

وسُئِلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ الْإِيمَانِ؟ فَقَالَ: { **الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ** }(٢).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُو، (أي لا تسقط)، وَالْقَنَاعَةُ سَيْفٌ لَا يَنْبُو (أي لا يرتدُّ) ».

وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَفْضَلُ الْعُدَّةِ الصَّبْرُ عَلَى الشِّدَّةِ» ، وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: «مِنْ خَيْرِ خِلَالِك الصَّبْرُ عَلَى اخْتِلَالِك» وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ: «مَنْ أَحَبَّ الْبَقَاءَ فَلْيُعِدَّ لِلْمَصَائِبِ قَلْبًا صَبُورًا». وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: « بِالصَّبْرِ عَلَى مَوَاقِعِ الْكُرْهِ تُدْرَكُ الْحُظُوظُ ».

• والصبر ضياء، وبالصبر يُتَوَقَّع الفرج، وهو سِترٌ من الكروب، وعون على الخطوب، وهو أفضل عُدَّةٍ عند الشدَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: ك: الزكاة، ب: الاستعفاف عن المسألة، ح (١٤٦٩)، ومسلم: ك: الزكاة، ب: فضل التعفف والصبر، ح (١٠٥٣).

(٢) أخرجه أحمد، ح (١٩٤٣٥)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٥١)، وصحيح الجامع (١٠٩٧).

• وسُئل الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الصبر فقال: «تجرُّع المرارة من غير تعبيس».

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لرجل: « إن صبرتَ مضى أمرُ الله وكنت مأجورًا، وإن جَزِعتَ مضى أمر الله وكنت مأزورًا ».

• **والجَزَعُ** أتعب وأمَرُّ من الصبر، ففي الجزَع التعب والوِزر، وفي الصبر الراحة والأجر.

• **ففي الصبر**: استعجال الراحة، وانتظار الفرج، وحسن الظن بالله، وأجرٌ بغير حساب.

• **وفي الجزع**: استعجال الهمِّ، ونهك البدن، واستشعار الخيبة، وسوء الظن بالله، وحمل الإثم مع العقوبة، وما أحسن بذي العقل اجتنابَ هذا!.

• بالصبر تُنال المنَى، ومَن شَكَرَ حصَّن النَّعماءَ.

• قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ما أنعم الله على عبد نعمةً فانتزعها منه وعوضه صبرًا إلا كان ما عوضه أفضل مما نزعه منه ».

• وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « الصبر كفيل بالنجاح، والمتوكِّل لا يخيب ظنه، والعاقل لا يذل بأول نكبة، ولا يفرح بأول رفعة ».

• ولقد ذكر الله تعالى الصبر في خمسة وتسعين موضعًا بالقرآن الكريم.

**•• من فوائد الصبر:**

١- الثناء من الله تعالى على صاحبه.

قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص].

٢- البشارة والصلاة والرحمة.

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

٣- نيل الدرجات العلي في الجنة.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان].

٤- نيل الكرامة العظيمة، وهي سلام الله تعالى عليهم.

قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

٥- الثواب عليه بغير حساب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر].

٦- هو بصيرةٌ وضياءٌ لصاحبه.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { والصَّبْرُ ضِياءٌ }(١).

**٧- هو خير العطاء من الله تعالى، وأوسعه.**

كما في الحديث: { وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ }(٢).

**٨- اشتماله على نصف الإيمان.**

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ »(٣).

**٩- التأييد على الأعداء.**

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود].

**١٠- إمامة الناس، والتقدُّم عليهم.**

قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة].

---

(١) أخرجه مسلم: ك: الطهارة، ب: فضل الوضوء، ح (٢٢٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٧)، والحاكم في المستدرك بنحوه (٣٦٦٦)، وقال: صحيح ولم يخرجاه.

**١١- ضمان النصر به.**

كما في الحديث: { وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا }(١).

• فتأمَّل كيف كان عاقبة الصابرين، ونهاية الظالمين على مرِّ الأزمنة!

وقد صدق الله تعالى، وتحقَّقت سُنَنُهُ، والله لا يخلف الميعاد.

• وانظر كيف ذهب الزبد جفاءً، فما بكت عليهم السماء والأرض، وكيف خلف هؤلاء الطغاة الأثر السيء والذكر القبيح لهم، خلافًا لأصحاب العدل واليقين، الذين جعل الله ﷻ لهم لسان صدق في الآخرين، قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

دروس نتعلمها، صبر ويقينٌ، وحرصٌ على ما ينفع الناس، لننال بها الكرامة والإمامة، والذكرى الطيبة الحسنة بما نقدمه من الأمور النافعة للناس، فننال: رضاهم، وثناءهم، ودعواهم، والذكر الحسن منهم، وتلك عاجل بشرى المؤمنين، ويتوارث هذا الشرفَ الذريَّةُ من بعدنا، فهل من معْتَبر ؟!

---

(١) أخرجه أحمد، ح (٢٨٠٣)، والحاكم في المستدرك (٦٣٠٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وإسناده صحيح.

# وقفة

## قالوا في الصبر

• الصبر مطيَّة لا تكبو، والقناعة سيفٌ لا ينبو، والصبر كفيلٌ بالنجاح، وحصنٌ منيع المكان، مَشيد البنيان.

• الصبر جُنةٌ واقيَة، وعِزةٌ باقيَة.

• الصبر باب العِزِّ، والجزع باب الذلِّ.

• السعيد من قَمَع بالصبر شهوته، ودبَّر بالحزم أمره.

• مَن صَبَرَ نالَ المُنَى، ومَن شكَرَ حَصَّنَ النَّعماءَ.

• ومما يُعين على الصبر ستة أمور، هي:

١- الثقة بالله ﷻ بأنَّ كلَّ مقدور كائنٌ.

٢- أن الصبر خير ما استعمله الممتحن.

٣- وإن لم نصبر فأي شيء نعمل.

٤- وما أغنى عن نفس بالجزع.

٥- وقد يكون في بَشَرٍ شرٌّ أكبر مما أنت فيه.

٦- ومن ساعةٍ إلى ساعةٍ فرجٌ.

• **والصبر أربعة أقسام:**

**١ـ** صبرٌ على الطاعة، ليحصل ثوابها المترتِّب على سلامتها من القوادح.

**٢ـ** وصبرٌ عن المعصية، ليسلم من شؤمها عاجلًا وآجلًا.

**٣ـ** وصبر عن فضول الدنيا، ليتخلَّص من الشغل بها في الحال، وينال السعة في المآل.

**٤ـ** وصبرٌ على المحن والمصائب، ليبقى ثوابها موفورًا.

• **من ألفاظ الصبر:**

**المتصبِّر:** من صبر في الله على المكاره، فتارة يعجز، وتارة يصبر.

**الصابر:** مَن لا يشكو، ولا يَعجز.

**الصبَّار:** الذي لو دفع عليه جميع البلايا والمحن لم يتغير وجهه في الحقيقة، وإن تغير من وجهه الرسم والبشريَّة والخلقة.

**الصبور:** هو الثابت على هذه المقامات.

• والصبر لله غِنًى، والصبر بالله تُقًى، والصبر في الله بلاءٌ، والصبر مع الله وفاءٌ، والصبر عن الله جفاءٌ.

• **ومن أجمل ما قيل:** بين الصبر والتصبر (التنعم)، فلو شاهد الصابر منازل الصابرين ومنزلتهم عند الله فإن القلب يتنعَّم بسرور ذلك.

## ٨- سنة الغفلة:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق].

• والغفلة من مداخل الشيطان على العبد، وأكثر ما يقع فيها الظالمون، ينشغلون بأمور ومشكلات، ومقابلات وتعاملات، وشهوات وملذات ولهو، حتى لا يكون لديهم وقتٌ للإصلاح، أو التفكير في عواقب الأمور، أو الاعتبار بمن سبقهم، حتى يأتي أمر الله بغتةً وهم لا يشعرون، وهم في غفلة غير مستعدِّين، فيفقدهم الصواب، ويوقعهم في فتنة لا كاشف لها إلا من رحم، كما قال نوح لابنه: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

• قال أبو جعفر المنصور (الخليفة العباسي الثاني): « ما زال أمر بني أميَّة مستقيمًا حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم قصد الشهوات، وإيثار اللذات، والدخول في معاصي الله ومساخطه، جهلًا منهم باستدراج الله تعالى، وأمنًا لمكره، فسلبهم الله العِزَّ، ونقل عنهم النعمة ».

• وأخبر ملكُ النوبةِ آخرَ ملوك بني أميَّة (**مروان الحمار**) لما سقط

ملكه أن السبب: « أنكم استحللتم ما حرم الله، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العِزَّ بذنوبكم، ولله فيكم نقمةٌ لم تبلغ غايتها ».

• وَسُئِلَ بعض المُلُوك مَن الَّذين سلب عزهم وَهدم ملكهم؟ فَقَالُوا: « شَغَلَتْنَا لذاتنا عَن التفرع لمهماتنا، ووثقنا بكفاتنا فآثروا مرافقهم علينا، وظلم عمالُنا رعيتَنا، ففسدت نياتهم لنا، وتمنوا الرَّاحَة منا، وحمل على أهل خراجنا فَقل دَخْلُنَا، وَبَطل عَطاء جندنا فَزَالَتْ الطَّاعَة مِنْهُم لنا، وقصدَنا عدوُّنا فَقل ناصرُنا، وَكَانَ أعظم مَا زَالَ بِهِ ملكنا استتار الْأَخْبَار عَنَّا »(١).

• كلماتٌ بيناتٌ واضحاتٌ، كأنها تحكي واقع الحكام اليوم.

فمنْ أغفل الصغيرَ حتى يكبر، والقليلَ حتى يكثر، والخفيَّ حتى يظهر، أصابه الفساد، وضاع عِزُّه ومُلْكُه.

• فالغفلة تمنع من سماع النصح، وقبول الوعظ، وتُشغِلُ صاحبها عن أداء الحقوق والواجبات، فتظهر العداوة له، ومن طال عدوانه زال سلطانه.

• والغفلة هي السبيل إلى الأخلاق الدنيئة التي تُضيِّع الشرف،

---

(١) انظر النقول السابقة في (سراج الملوك) لأبي بكر الطرطوشي، ص (٥٤- ٥٥).

وتهدم المجد. والسعيد من وُعِظَ بغيره، والشَّقِيُّ مَن وُعظ بنفسه.

• ولا فخر فيما يزول، ولا غِنَى فيما لا يبقى، ومن أراد جمالًا لا تهدمه الأيام فليصحب المروءة والصيانة، فهما ذروة الشرف.

• وليعلم الحكام أن قلوب الشعوب هي الخزائن الحقيقيَّة لهم، فما أودعوها من شيء فليعلموا أنه فيها، والشعوب إذا قدرت على أن تقوم قدرت على أن تفعل، وهي لا تقول إلا إذا كان الحاكم في غفلة عنها، أو ظالمًا لها.

• واعلم أن الشيطان ذئب الإنسان، ينقَضُّ عليه وقت غفلته، من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾[الناس].

جاء في تفسيرها: أن الشيطان جاثمٌ على قلب ابن آدم، فإذا غفل وسها التهم قلبه، وإذا ذكر الله تعالى خنس.

• ومن أسباب ضياع الملك والرئاسة غفلة الحاكم عن الجور لشعوبهم.

قال وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إذا همَّ الوالي بالجَور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته، في الأسواق والزرع والضرع وكل شيء، وإذا همَّ بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك ».

## وقفة
## خصال الحاكم الثمانية

قال الله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص].

• قال ابن رضوان: « ينبغي للملك أن يتفرغ للنظر في أحوال الولاة وأعوانهم وخدامهم حيثما كانوا، والنظر في أحوال أقاصي البلاد وأدانيها، ومعرفة ما له وما عليه، ويتفرغ لسماع الشكوى، ويتفرغ لتجهيز الجيوش والكتائب، وقراءة كتب الأخبار الواردة عليه من كل ولاية مما لا ينظر فيه غيره، وفي معاناة خلة أهل بلد تحل بهم جائحةٌ من جوع أو مرض أو سبيل أو عدُوٍّ، أو غير ذلك ». **بدائع السلك (٢/ ٣٠)**.

•• **وخصال الحاكم اليقظان (غير الغافل) ثمانية**، هي:

**١ـ** عدم الهزل في الأمر والنهي.

**٢ـ** عدم خلف الوعد والوعيد.

٣ـ تولية أهل الكفاءة، دون المحسوبيَّة والقرابة.

٤ـ الثبات على العناء لا على الهوى.

٥ـ العقوبة للأدب لا للغضب.

٦ـ امتلاك قلوب الشعب بالمحبة من غير جرأة أو رهبة.

٧ـ الهيبة من غير ضغينة.

٨ـ العدل في توزيع القوت ومنع الفضول.

• وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري: « إذا كان الملك محصِّنًا لِسرِّهِ، بعيدًا من أن يعرف ما في نفسه، متخيِّرًا للوزراء، مهيبًا في أنفس العامة، مكافئًا بحسن البلاء، لا يخافه البريء، ولا يأمنه المجرم، كان خليقًا ببقاء ملكه ».

❊ ❊ ❊

## ٩- سنة التداول:

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران].

• فالأيام دولٌ، يومٌ لك ويومٌ عليك.

فلا حُزنٌ يدُومُ ولا سُـرُورٌ وَلا بُـؤْسٌ عليْكَ ولا شقاءُ

ورزقُكَ ليسَ يَنْقُصُهُ التَّأنِّي وليسَ يَزيدُ في الرزقِ العَناءُ

• فلو دام الملك لغيرك ما وصل إليك، وإذا وصل إليك فسوف ينتقل إلى غيرك.

• ولا الفقير يظلُّ فقيرًا، فلا تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا.

ولا الغنيُّ سوف يظلُّ على حاله، فكم من غنيٍّ أفناه المرض، أو الخسارة، أو الظلم، أو البلاء.

ولا القويُّ يظلُّ قويًّا، ولا المستبِدُّ يظلُّ مستبِدًّا، فلابد من القصاص يومًا ما، فالملك الحقُّ لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ، ولا يغفل ولا ينام، حكمٌ عدلٌ، وإلهٌ حقٌّ، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ [المؤمنون:٧١].

• والدنيا سريعة الزوال، والليل والنهار مطيَّتان، يقرِّبان كل بعيد،

ويُبليان كل جديد، ويُفنيان كل موجود.

• وليتأمَّلْ كل واحد ما خُلِقَ له، وبماذا أُمِرَ ؟!

والله ﷻ قال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، انظر كيف وصف الله تعالى جميع الدنيا بأنها متاعٌ قليلٌ متداولٌ، وأنت تعلم أنك ما أُوتيت من ذلك القليل إلا قليلًا، ثم ذلك القليل إن تمتَّعت به ولم تعصِ الله فيه فهو لعبٌ ولهوٌ.

قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت:٦٤].

فكيف يفضِّل العاقل لعبًا قليلًا يفنَى على حياة أبديَّة لا تفنى، وشباب لا يَبلَى !!

• عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: { **كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ** }. وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: ك: الرقاق، ب: قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {كن في الدنيا كأنك غريب}، ح (٦٤١٦).

• وإن كنت لا تدري متى يأتي الأجل فلا تغترَّ بطول الأمل، فإنه يُقَسِّي القلب، ويُفسِد العمل، فأنت لن تبقى إلى آخر الدهر.

• ولو كانت الدنيا كلُّها ذهبًا وفضةً وأموالًا وقصورًا ثم سلَّمت عليك بالجاه أو السلطان، وألقت إليك مقاليدها، فاعلم أن الموت يطردك عنها، فلا فخرَ فيما يزول، ولا غَناءَ فيما لا يبقى.

• إن كان الله سبحانه عليك فمن ترجو؟!

إن كان الله سبحانه معك فمن تخاف؟!

إذا كنت إذا عصيت الله ظننت أنه يراك فلقد اجترأت على رب عظيم، وإن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت برب عظيم.

• وَدَخَلَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشَّامَ فَقَالَ: «يَا أَهْلَ الشَّامِ اسْمَعُوا قَوْلَ أَخٍ نَاصِحٍ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكُمْ تَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ، وَتَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ. إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَكُمْ بَنَوْا مَشِيدًا، وَأَمَّلُوا بَعِيدًا، وَجَمَعُوا كَثِيرًا فَأَصْبَحَ أَمَلُهُمْ غُرُورًا، وَجَمْعُهُمْ ثُبُورًا، وَمَسَاكِنُهُمْ قُبُورًا»(١).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل»، ص (١٦٩)، واللفظ في «أدب الدنيا والدين»، لأبي الحسن الماوردي، ص (١٢٣).

• **ومن الحِكَمِ المأثورة:** « ابنَ آدم، لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقَصَّرْتَ من حِرْصِك وحِيَلِكَ، وإنما يلقاك غدًا ندمُك، لو قد زلَّت بك قدمُك، وأسلمك أهلك وحشمك، وتبرأ منك القريب، وانصرف عنك الحبيبُ، فلا أنت في عملك زائدٌ، ولا إلى أهلك عائدٌ».

• فإذا كانت الأيام دولًا لا تستقر على حال، نُشَيِّعُ في الصباح موتانا، ونستقبل في المساء مولدًا جديدًا، فليكن العاقل على حذر من الذنوب، لأن كثرتها مانعةٌ من قبول الحق وولوج المواعظ إلى القلب.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[المطففين].

أي: غطَّتْها وغَشِيَتْها الذنوب، فلا تقبل خيرًا ولا تُصغِي لموعظة.

• يُروَى أن سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأمويَّ السابع) لبس أفخر الثياب، ومسَّ أطيبَ طِيبِهِ، ونظر في مرآته، فأعجبته نفسه، وقال لها: أنا الملك الشاب، وخرج إلى الجمعة، وقال لجاريته: كيف ترينَ ؟ فقالت:

أنتَ نِعْمَ المَتاعُ لو كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أن لا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

لَيْسَ فيمَا بَـدَا لَنَا منْكَ عَـيْبٌ عَابَهُ الناسُ غَيْرَ أَنكَ فَانِ

فأعرض بوجهه ثم خرج، فصعد المنبر، وصوته يُسمع آخرَ المسجد، فركبته الحُمَّى، فلم يزل صوته ينقص، حتى ما سمعه مَنْ حمله، فصلى ورجع بين اثنين يسحب رجليه، فلما صار على فراشه قال لجاريته: ما الذي قلتِ لي في صحن الدار وأنا خارج؟ إنا لله وإنا إليه راجعون، نُعيَتْ إليَّ نفسي، ثم عَهِدَ عهدَهُ، وأوصى وصيَّته، فلم تَدُرْ عليه الجمعة إلا وهو في قبره !

* * *

## وقفة

## من اتخذ الدنيا وطنًا

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلبُ الرجال فلم تنفعهم القللُ

واستنزلوا بعد عز من معاقلهم ... فأسكنوا حُفرًا يا بئس ما نزلوا

ناداهم صارخٌ من بعد ما دُفنوا ... أين الأسِرَّةُ والتيجان والحللُ؟

أين الوجوهُ التي كانت محجبةً ... من دونها تُضربُ الأستارُ والكللُ

فأفصح القبرُ عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوهُ عليها الدودُ يقتتلُ

قد طال ما أكلوا يومًا وما شربوا ... فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أُكلوا

* * *

مَن كان يعلمُ أن الموتَ يدركه ... والقبر مسكنه والبعثُ مخرجُهُ

وأنه بين جنات ستبهجُه ... يوم القيامة أو نار ستنضجُه

فكل شيء سوى التقوى به سمجٌ ... وما أقام عليه منه أسمجُه

ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنًا ... لم يدر أن المنايا سوف تُزعجُهُ

* * *

## ١٠- سنة التوفيق:

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾[هود].

والشَّتات والضَّلال في الأعمال صَنعةٌ ملازمةٌ للذين كفروا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد].

فالموفَّق من وفَّقه الله ﷻ، وهداه إلى هذا التوفيق، وأصلح شأنَه وبالَهُ. لذلك قال الله بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد].

فالعمل الصالح بعد الإيمان، والالتزام بما أنزل على محمد ﷺ من الوحي «الكتاب والسنة» هو السبيل القويم لصالح الأعمال، مع راحة البال.

من الممكن أن تجد أُناسًا لهم أعمالٌ، وهم من رجال المال والأعمال، ولكنك لن تجد عندهم راحة البال، فاجتماع راحة البال مع الأعمال لا سبيل للحصول عليها إلا عن طريق الإيمان بالله تعالى، وعمل الصالحات التي أرشد إليها هذا الإيمان، والمتوافقة مع ما أُنزل على النبيِّ العدنان ﷺ.

لذلك أكَّدَ الله ﷻ هذا الأمر بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس].

فصلاح عملهم على الجملة يستحيل طالما معه إفسادٌ في الأرض، وهذه سنةٌ إلهيَّة عظيمةٌ.

وانظر إلى أعمال الطغاة المستبدِّين، ورجال المال المكتنِزين في آثارها. ففي الدنيا: تعود عليهم بالخيبة والانتكاسة وعدم التوفيق، وفي الآخرة: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

• إذا أردت أن تتعرَّف على حجم الفساد وضخامة الأموال التي اكتنزها هؤلاء الطغاة المفسدون في الأرض، مقارنةً بما قاموا به من إصلاحات وصناعات، تستطيع من خلال المقارنة أن تتعرَّف على الفشل الذريع الذي يُصاحِب هؤلاء المفسدين في الأرض، وأن التوفيق غير ملازم لهم.

ولو كان التوفيق حليفهم لكانت الدلالة عليه محبة شعوبهم لهم، ورضاهم عن حكمهم وسلوكهم وأعمالهم، والرقيّ بأوطانهم، وصلاح التعليم والصحة، وطهارة البيئة، وشيوع الأمن.

• وأظهر علامة على فساد هؤلاء، هو الإعلام في عصرهم، والنفاق الذي ساد في فترة حكمهم، وتشجيع الفن الهابط، وانتشار الرذيلة، والزنا السِّرِّيِّ، وتجارة السموم البيضاء والمخدِّرات والخمور، ورواج الرشوة والسرقة، وانتشار الغِشِّ، ليس في التجارة فحسب، بل في التعليم، وبين المدرسين والتلاميذ، وسائر نواحي الحياة.

وأعظم من ذلك كله هو امتهان كرامة الإنسان، ومحاربة الإسلام لحساب أعدائه، بل تعاونهم معهم، واعتبار العدو اللَّدود صديقًا، انتكاسةٌ في شتَّى نواحي الحياة تعكس الفشل الذريع لهؤلاء، وتؤكد على خيانتهم لدينهم وللبلاد والعباد، ولكن سُنَّةَ الله ماضية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس].

قال الشاعر:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ ... وَلَا سَرَاةُ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

الْبَيْتُ لَا يُبْتَنَى إِلَّا بِأَعْمِدَةٍ ... وَلَا عِمَادَ إِذا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ

فإِنْ تُجمَع أوتادٌ وأعْمِدَةٌ ... يومًا فقَدْ بَلَغُوا الأَمْرَ الذِي كادُوا

***

**•• ومن علامات عدم التوفيق:**

اتخاذ العصبيَّات وذوي القرابة في المراكز المهمَّة والحسَّاسة، وانفرادهم بالمجد، الاقتصاد في النفقة على الشعوب، وعدم التعفف عن أموال الشعوب، كثرة الإنفاق والإقدام على المزيد من الجبايات والضرائب، التعدِّي على أملاك الدولة، التَّرَف واستطالة المُلك بالقهر والاعتساف، انتشار التجسُّس والسِّعاية فيهم، تشجيع القوميَّات والنعرات الجاهليَّة، وكثرة الأحزاب والجمعيات، المصادرة والاعتقال بحق وبغير وجه حق.

وهذا كله من أسباب الهرم في الأنظمة المستبدة الفاسدة.

• قال ابن خلدون: « إن الهَرَمَ إذا نزل بالدولة لا يرتفع ».

• وعلى قدر الدولة وتخلِّيها عن أسباب الاستبداد والفساد يكون شأنها في الحضارة.

• والإنسان إذا غُلِبَ على أمره صار آلةً لغيره.

***

**•• ومن علامات التوفيق:**

حُسن اختيار النوَّاب والمحافظين والعُمَداء بالشروط التالية:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ٣٥﴾ [طه].

فبيَّن الله تعالى في هذه الآية الشروطَ اللازمَ توافرُها في الوزير.

فأول ما يظهر من قبل الحاكم قوةٌ وتمييزٌ، وجودة عقل في استوزار الوزراء، وانتقاء الجلساء، ومحادثة العقلاء.

• وسعادة الحاكم متوقِّفَةٌ على وزارة الوزير الصالح.

قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ عَمَلًا فَأَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ }**(١).

• وصلاح السلطان وفساده لازمٌ من صلاح الوزير وفساده.

• ومن صلاح الوزير صلاح بطانته وأعوانه، لأنه لا يَصْلُحُ الحاكمُ إلا بالوزراءِ والأعوانِ، ولا الوزراءُ والأعوانُ إلا بالمودَّةِ

---

(١) أخرجه النسائي: ك: البيعة، ب: وزير الإمام، ح (٤٢٠٤)، وابن حبان في صحيحه (٤٤٤٩)، وصحَّحه الألباني.

والنصيحةِ، ولا المودةُ والنصيحةُ إلا بالرأيِ والعِفَّةِ والعَفافِ.

**٢-** ولابد للوزير من فضائل أساسيَّة، يجب توفُّرها فيه، منها:

• العلم، وجودة الفهم، والذكاء والفِطنة، وقوة الحفظ، والحِنكة والتجربة، والصبر على تحمُّل ما يقوم به، وسَعة الصدر، وقوة العزيمة، وحبُّ العدل وأهله، وبغضُ الجَوْرِ وذويه، ورحمةُ الخلق، ليداويَ بها ما يجرحه الحاكم بغلظته.

• وكتب معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى زياد: «إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدةً، لا نلين جميعًا فنجعل الناس في المعصية، ولا نشتدُّ جميعًا فنحمل الناس على المهالك، ولكن لتكن أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا بالرقة والرحمة»(١).

• كما يجب توفُّر النزاهة في الوزراء، وطهارة القلب من خبث السريرة، ليكون نقيَّ الجيب، ناصحَ الغيب.

• وأن يتميز بحسن المعاملة، وسماحة الخلق، ولين الجانب، وسهولة اللقاء، والتواضع الذي تُحمَدُ عاقبته.

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك (١/ ١٨٤- ١٨٥).

• ويجب أن يكون عالي الهمة، يحب الكرامة ويأنف من الفضيحة، ويحمي من طوارق الذلة والمهانة.

• **ويجب أن يتوفر فيه**: اعتدال السيرة والخُلُق، إن انحرف الحاكم تلطَّف في ردِّه إلى الاعتدال.

**٣-** ولابد للوزير من كمالات بدنيَّة: كتمام الأعضاء، وجمال الوجه وبهائه مع البشر والحياء، وصدق اللسان، وحسن العبارة بأوجز لفظ وأوضح بيان، بعيدًا عن هَذْرِ القول، وكثرة المزاح، والتعريض بالناس، والاستخفاف بهم غَيبةً وحضورًا، وليحسن الشجاعة فهي أم الفضائل، وأن يتقي شَرَهَ الأكل والنكاح.

**٤-** ولابد في الوزير من شرف البيت، وكرم المنشأ، وأمانة بطانته، وإباحة مجلسه لذوي المقاصد والحاجات، واستواء ليله ونهاره في حسن النظر.

**٥-** والحذر أن يُوَلِّيَ الحاكمُ وزيرًا لئيمًا، لأن اللئيم إذا ارتفع جفا أقاربَه، وأنكر معارفَه، واستخفَّ بالأشراف، وتكبَّر على ذوي الفضل والإنصاف.

• لأن الوزير من الحاكم بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه، وبه

يصان الحاكم عن الامتهان، وترفعه به عن التبذُّل، فالوزير عونٌ على الأمور، وشريكٌ في التدبير، وظهيرٌ على السياسة، ومَفزعٌ عند النازلة، وقائم بوظائف الحكم عند استراحة الحاكم من كَدِّ التعب.

***

•• **من الوصايا للملوك والحكام:**

« ينبغي للحاكم أن يكون في ستة أشياء جليلةٍ: وزيرٍ يثق برأيه، ويفضي إليه بأسراره، وحصنٍ يلجأ إليه إذا فزع، وسيفٍ إذا نازل الأقران لم يَخَفْ عليه أن يخونه، وذخيرةٍ خفيفةِ الحملِ إذا نابته نائبة كانت معه، وامرأةٍ إذا دخلت عليه أذهبت همَّه، وطبَّاخٍ إذا لم يشتهِ طعامًا صنع له طعامًا يشتهيه ».

• وأخيرًا فيما يلزم في اختيار الوزير أن يزداد به الحاكم عقلًا وإداراكًا، فهو زينته في الملأ، وأُنسه في الخلاء، وساتره في البأساء والضرَّاء.

• **ويجب على الحاكم تجاه الوزير ما يلي :-**

مشورته في الأمر، وموافقتة على ما ظهر صواب رأيه فيه، وذلك عملًا بقول الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾[آل عمران:١٥٩].

• **أطوار حكم الطغاة:**

**والحكام الطغاة الذين لم يوفقهم الله ﷻ يمرُّ حكمهم بعدَّة أطوارٍ:**

• طَوْرُ الظفر والاستيلاء على الحكم، يليه طَوْرُ الاستبداد على شعبه والانفراد دونهم بالحكم، ثم طَوْرُ الفَراغ والدَّعَة لتحصيل وجمع الثمرات، ثم طَوْرُ القنوع والمسالمة بعد الإسراف والتبذير، وكل هذه الأطوار من علامات عدم التوفيق والسَّداد.

•• **وأكبر علامة على عدم التوفيق:** فَقْد العِزَّة بالتميُّز، وشعوره بالنقص، فيولع بالاقتداء والتشبه بالغالب من الدول، وسبب ذلك اعتقاد هذه الأنفس المريضة بكمال من غلبها بما وقر عندها من تعظيمه، فيتشبه به في ملبسه ومركبه وسلاحه وسائر أحواله.

• قال ابن خلدون: « ولذلك ترى المغلوب يتشبَّه أبدًا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتِّخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله »(١).

• والناس على دين ملكهم، فإن يكن لحاكمهم عِزَّةٌ وتميُّزٌ ويستجدي أنظمة حكمه وسياسته ممن لا يرقبون فيه إلًّا ولا ذمَّةً، وممن يرضونه بالأفواه وتأبى قلوبهم، وممن لا يرضَون عنه حتى يتبع

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ١٨٤).

ملتهم - كان هذا أسرع إليه بالفناء ولُملكه بالزوال.

• والنفس كما ذكرنا: إذا ملك عليها أمرها صارت بالاستعباد آلةً لسواها، وحصل للناس من التكلف ما يقصر به الأمل والطموح الذي به التناسل والإعمار.

• **ومن علامات عدم التوفيق للرُّعاة والحكام الطغاة المستبدِّين:** كثرة الفتن، ووقوع المجاعات، وكثرة الخارجين على النظام، وتضييع بركة الثمار والزروع والصناعات، وتكثر الأوبئة، حتى الهواء يفسد، وفساد الهواء غالبًا سببه الوباء والخلل، فيفسد الأمزجة، وتتضاعف الحميَّات المهلكة، وتكثر أعمال البلطجة.

• **ومن علامات عدم التوفيق أيضًا:** اتباع الهوى، وهو مضادَّته للحقِّ.

قال الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم].

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: « قَدْ حَصَرَ الْأَمْرَ فِي شَيْئَيْنِ:- الْوَحْيِ وَهُوَ الشَّرِيعَةُ، وَالْهَوَى، فَلَا ثَالِثَ لَهُمَا، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَهُمَا مُتَضَادَّانِ، وَحِينَ تَعَيَّنَ الْحَقُّ فِي الْوَحْيِ توجَّه لِلْهَوَى ضِدُّهُ، فَاتِّبَاعُ الْهَوَى مُضَادٌّ

لِلْحَقِّ »(١).

فأصل كل فتنة ومصيبة وذنب من هوى النفس.

• وقد عُلِم بالتجربة أنه لا يحصل مع الاسترسال في اتباع الهوى حفظُ مصالحِ الناس، وذلك لما ينشأ عنه من التضادِّ العائد على الوجود بفساد النظام.

قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون:٧١].

• والعقوبة على اتِّباع الهوى متوعَّدٌ بها عاجلًا أو آجلًا.

قال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص]. والإضلال عن سبيل الله عقوبةٌ عاجلةٌ، والعذاب الشديد عقوبةٌ آجلةٌ.

• فالتوفيق لا يكون إلا بالله ﷻ، ولمن تواضع له، وابتغى العِزَّة لديه، فليست العِزَّة إلا لله سبحانه، وليست لغير الله إلا عزَّةٌ بذِلَّة.

---

(١) الموافقات، للإمام الشاطبي (٢/ ٢٩١).

• فمن استكبر ابتغاء العِزَّة لم يَزِدْهُ الكبرُ إلا ذِلةً، ولم تَزِدْهُ الذِّلة إلا قِلَّةً، ولو عَقَلَ لما استكبر، ولو وُفِّق لما تجبَّر، ولا يُرجَى اللهُ بقبح المعصية، إنما نرجوه بحسن الطاعة، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود]، فالتوفيق من الله حليفٌ لمن توكَّل واعتمد عليه، وأناب وتاب إليه.

• والله سبحانه قد ولَّى الحاكم أمر عباده هو سبحانه، فإن أحسن إليهم أحسن هو سبحانه إليه، لذلك فهو مطالب بالإحسان، ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص].

لذلك أمر الله نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتِّباع ما أنزل إليه (الوحي والشرع)، ونهاه وحذَّره من اتباع الأهواء، بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية].

ففي اتباع الهوى الضلال عن سبيل الله تعالى.

* * *

## وقفة
## من علامات التوفيق في الحكم

١- عدم الهزل، فإنه يُفقِد الهيبة (سواء في الأمر والنهي ).

٢- عدم خُلْف الوعد (سواء في الوعد أو الوعيد).

٣- تولية أهل الكفاءة (لا القرابة ولا المحسوبيَّة).

٤- الثواب على الكفاءة والجدِّ، لا على الهوى واللعب.

٥- الضرب في الحد، للتأديب لا للانتقام.

٦- كسب قلوب الرعيَّة بالمحبة من غير جرأة، وبالهيبة من غير ضعف.

٧- تعميم العطاء، وعدم تخصيصه لقوم دون آخرين.

٨- العمل بالرأي والحكمة، لا بالهوى.

٩- استطلاح شؤون الرعيَّة، والتعهد لأمورهم، وحسن السيرة فيهم.

١٠- إقامة العدل فيهم، والتعديل بينهم.

١١- إقامة الحدود، وتأدية الفرائض، وحقن الدماء، وتأمين الطرق.

١٢- الحذر من الأخلاق الدنيئة، لأنها تضيع الشرف وتهدم المجد.

١٣- عدم الغرور والعُجب بالإمارة، وعدم الثقة بالمال وإن كثر.

١٤- العلم بالرعيَّة، والعدل في القضية، وقبول الأعذار، وتحرِّي الصواب، والرفق بالضعيف، وعدم محاباة القوي، ولا مجافاة القريب، ومن طال عدوانُه زال سلطانُه.

## ١١- سُنة التغيير:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

التغيير يكونُ وَفْقَ سُنَّةِ الله تعالى، لا وَفْقَ أهواءِ الثائرين ومعتقداتهم وآرائهم المختلفة.

• وهذه مسألةٌ في غاية الأهميَّة، نتناولها بعد معرفة **مراحل التغيير**.

### • مراحل التغيير وسننه:-

**١- التغيير بالقلب**، وهذا أضعف الإيمان، ويرجع إلى الحالة التي يكون عليها صاحبها من ضعف العقيدة والإيمان والعلم، وهذا سبيل الضعفاء والمستضعفين، ومَن لا حيلة له ولا يَهتدي سبيلًا، لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **{ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ }**(١).

**٢- التغيير باللسان**، وإقامة الحجَّة والبيان، وهذا واجبٌ على كل قادر، عليه أن يصدع بكلمة الحق، سواء أكان مقالًا أو مقابلةً أو

---

(١) أخرجه مسلم: ك: الإيمان، ب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ح (٤٩). عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

تشجيعًا أو تعاونًا، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]، وقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]،

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ** }(١).

**٣- التغيير باليد** لكل صاحب عقيدة راسخة، وإيمان ثابت، لكل من كان تحته من رعيَّته، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وهو أوجب في صدِّ الاعتداء، سواء كان على دين الله، أو العدوان على عرضه أو ماله وأرضه، وهو فرض عين على الوُلاة وأهل الحِسبة والعلماء وعامة الناس، والمسؤوليَّة لكلٍّ في منصبه.

• سُئِلَ حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن مَيِّتِ الأحياء، فقال: « **الذي لا يُنكِرُ المنكرَ بيدِهِ، ولا بلسانِهِ، ولا بقلبِهِ** »(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ح (٤٨٨٤)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٦٧٥).

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي (٢/ ٣١١).

وَقِيلَ لِابْنِ مَسْعُودٍ: مَنْ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ؟ فَقَالَ: « الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا »(١).

**٤- التغيير يخضع لسنة الله تعالى في الخلق**، وهي: « أن الناس إذا تغيَّرت أحوالهم من المعاصي إلى الطاعات غيَّر الله تعالى حالهم مما يكرهون إلى ما يحبون، وإذا تغير حال الناس من الطاعات إلى المعاصي بدَّل الله تعالى أحوالهم مما يحبون إلى ما يكرهون ».

• ولما عاد بعض الشباب المسلم إلى المساجد، وحلقات العلم، ومعاهد القرآن، وابتعدوا عن المعاصي والمحرَّمات، وبدأ الفسق يتقلَّص وإتقان العمل وإحسانه يتوفَّق، بدأ الله تعالى معهم بعض التغيير، وفاءً لوعده، وتصديقًا لقوله سبحانه: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا** ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء].

**٥-ولابد للتغيير من أهدافٍ**، وأسمى هذه الأهداف: التغيير من أجل الوصول إلى الحق والعدل، ابتغاءَ رضوان الله تعالى، واتِّباعًا لسنة رسوله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ١٢٧).

**٦-التغيير يجب أن ينبع من النفس**؛ بمعنى أن بوابة التغيير لا تُفتَح إلا من الداخل، فلو افترضنا أن هناك تأثيرًا خارجيًّا يريد أن ينال من هويَّة مصر الإسلاميَّة، وأن يخرِّب عقيدتها بأي مبادئ أخرى، أو له مصالح وأفكار غريبة عن تقاليدنا وثقافتنا وعاداتنا، وله أتباع معجَبون به، فعلينا أن نحذر من هذا التغيير الذي يأتي من الخارج، والوارد إلينا بعَبَلِهِ وَرَوَثِهِ، وفضائله ورذائله.

فالطرق والمناهج الغربيَّة يستحيل الوصول بها إلى ذلك المطمح الأسمى، والهدف الأعلى للتغيير الذي ننشده، والصلاح والإصلاح الذي نتمناه ونسعى إليه.

**٧- التغيير يحتاج إلى المجادلة والمحاورة**؛ لمعرفة مَنْ حولك، وتقبُّل غيرك قبل دعوته للتغيير، بإقامة الحُجَّة، وحُسن البيان، وتقديم التي هي أحسن، والنصيحة، والأمر بالمعروف قبل النهي عن المنكر، وقبل استعمال الجهد والقوة في التغيير.

**٨-** لابد للذي يريد أن يغيِّر أن يكون لديه طموحٌ وهمَّةٌ عالية، ورؤية مستقبليَّة، وقدرةٌ على استقراء الأحداث وتحليل النتائج، وتوقُّع المخاطر والمفاوِز.

وكما قلنا في مقدمة هذا البحث:

إن من قوانين الحياة وسنن الله فيها أنَّ « **مَن ضحَّى من أجل الباطل هَزَمَ من بَخِلَ من أجلِ الحق** ».

**٩- لابد لمن أراد التغيير أن يقترب**، ويكثر من الاحتكاك بالمتميِّزين أصحاب الخبرة والعلم، وعليه أن يستفيد من خبراتهم واستشاراتهم في إزالة العقبات، والثبات أمام التحدِّيات.

**١٠- تحويل الأماني إلى أهدافٍ وخطواتٍ ومشاريع**، ولابد من المرونة في إيجاد البدائل والطرق الموصلة للأهداف.

وغالبًا ما تكون المبادئ ثابتةً، ولكن الحركة لها متغيرةٌ، ولابد لهذه الحركة المتغيِّرة أن تكون محكومة بالشرع وأحكام الدين، حتى لا نقلِّد غيرنا في أن « **الغاية تبرِّر الوسيلة** »، ولكننا على ثباتٍ ويقينٍ أن الوسيلة الصحيحة هي أقرب طريقٍ للوصول إلى الغاية النبيلة.

**١١- كل تغيير كبيرٍ يلزمه تضحياتٌ كثيرةٌ**، ويحتاج إلى صبرٍ طويل، وحكمةٍ وعدم عجلةٍ، ذلك لأن كل تغيير سوف يواجَه بمقاومةٍ، فلابد أن يخرج من دائرة الراحة والأمان.

**١٢- التغيير الصحيح هو الذي يلتزم بالأخلاق المنبثقة عن العقيدة**

**الصحيحة**، لأن التغيير الذي وراءه عقيدةٌ تدفعه تكون فرص نجاح أكثر وأقرب.

**١٣- التغيير عند علماء النفس**: عمليَّة سلوكيَّة ترتبط بفهم النفسيَّات.

يقول الشيخ السيد سابق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ليس كل حق يُقال، وليس كل ما يقال حضر أهلهُ، وليس كل منْ حضر أهلهُ حضر أوانُه ».

لذلك يجب عند التغيير: مراعاة البيئة، ومعرفة أحوالها، وما يناسبها.

**١٤- عند التغيير لابد من الثقة بالله تعالى**، والتوكُّل عليه، والتعلُّق به حتى يُنعِمَ علينا بالتوفيق، بعد الأخذ بالأسباب كافَّةً، ولابد أن نكون على يقينٍ بالقضاء والقدر، وأن نعلم أن ما أصابنا ما كان ليخطئنا، وما أخطأنا ما كان ليصيبنا، وأن نُرْجِع الفضلَ في التوفيق لله وحدَه.

**١٥- ويحكم ذلك كلَّه** قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

***

## وقفة
## حراسة الوطن

• الأمة التى تسعَى إلى نظام عادلٍ للدولة يجب ألا تناقضه بسيرتها الفرديَّة والجماعيَّة، وفي المناهج والسُّبل التي تختارها لنفسها.

• إقامة العدل والمساواة وحقوق المواطنة لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق رسولٍ من الله ﷻ، أو رجلٍ يتبع الرسول فيما جاء به من الشرع من عند الله تعالى، ذلك لأن منصب الحاكم قائمٌ على عباد الله تعالى، وليس عباد الحاكم، فليس من حقه استبعادهم أو استعمال الاستبداد معهم، أو فرض ضرائب فادحة عليهم ليشيد لنفسه القصور والقرى السياحية الفاخرة، أو يأمرهم بالخنوع والتقشف، وينغمس هو في ملذات الحياة.

• لا تفتخِرْ بنفسك.... ودَعِ الناسَ يفخرون بعملِكَ.

• حراسة الوطن من الأفكار التى تُفسِدُ عقيدتَه ودينَه، وتذيبُ هُوِيَّتهُ، كحراسته من الأعداء تمامًا.

• إذا لم تحب وطنك فلا تكن ضدَّه أو خائنًا له.

• **قَالَ ابن مسعودٍ: « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً فَإِذَا غُيِّرَتْ، قَالُوا: غُيِّرَتِ السُّنَّةُ؟ » قِيلٌ: مَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: «إِذَا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ، وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ»** أخرجه الحاكم (٨٥٧٠)، والدارمي (١٩١)،وإسناده صحيح.

## ١٢- سُنَّة ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: (١)

لا شكَّ أن المنافق حريصٌ على أن لا يَظهَرَ نفاقُه حتى لا يُرتابَ في أمره، ولكن يأبَى اللهُ سبحانه وتعالى إلا أن يُظهِرَ سُنَّتَهُ، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد].

تأمَّلْ هذه الآيات والتي تحكي واقعًا كان بالأمس، ثم هو يتجدَّد حتى اليوم.

تحكي الآيات عن أُناسٍ تَبيَّنَ لهم الحقُّ المتمثِّلُ في الوحي المنزَّل على رسوله محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( من القرآن والسنة )، لكنهم ارتدُّوا على

---

(١) لقد أفردنا للحديث عن النفاق وشعبه وآفات المنافقين كتابًا بعنوان (هم العدو فاحذرهم) فليراجع.

أدبارهم طاعةً للشيطان الذي سوَّل لهم وأملى لهم باتباع الهوى بدلًا من اتباع الهدى.

هؤلاء الذين ارتدُّوا على أدبارهم جعل الله ﷻ لهم علاماتٍ ودلالاتٍ تدلُّ على ردَّتهم ونفاقهم وخداعهم، فهم لا يخدعون إلا أنفسهم، ولن يخادعوا الله تعالى، ولن يخدعوا الذين آمنوا لظهور هذه العلامات عليهم، ومنها:

١- قولهم للذين كرهوا ما أنزل الله من الكفار والملاحدة: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾، تمامًا كقول المنافقين في هذا الزمان لأسيادهم في الغرب: إننا لن نستطيع تنفيذ كل مطالبكم جملةً واحدةً، ولكننا سنطيعكم في بعض الأمر.

٢- اتِّباعهم ما يُسخِطُ اللهَ تعالى، وكراهيتهم لما فيه رضاه، فتجدهم يُعادون أهل الإيمان من المسلمين، ويضيِّقون عليهم في مساجدهم، ومراكز تعليمهم الإسلاميَّة (في المساجد والجامعات الإسلاميَّة والأزهريَّة، ومراكز الدعوة العامة والخاصة).

ويُصادِرون أموال شركات توظيف الأموال الإسلاميَّة، وهم في نفس الوقت يُفسِحون المجال لموالاة غير المسلمين، ويوسعون عليهم

في دور عبادتهم، بل يقف حرَسُهُم حمايةً لها وتأمينًا، لأنها تُفتح ليل نهارَ، ولا تغلَق أبوابها، ويفسِحون المجال لمعابدهم وكنائسهم ومدارسهم، وتعمل شركات توظيف أموالهم في حريَّة، بل الأدهَى والأمَرُّ أنهم يخصِّصون لهم ويبيعون لهم الأراضي بأسعار زهيدة جدًّا للمتر الواحد، مما يُعَدُّ خيانةً منهم لدينهم ولوطنهم ولمناصبهم التي ائتُمِنوا عليها.

• واتَّبعوا ما يُسخِطُ اللهَ تعالى في الاقتراض من البنك الدولي بالربا (الفوائد المركَّبة)، في حين هم يسرقون أموال الشعب المسلم، ويضعونها في مصارف الغرب، ويستثمرونها هناك، ثم تُصادَرُ أو يُحجَرُ عليها، أو تجمد أرصدتها، فلا هم استفادوا بها، ولا انتفعت بها شعوبُهُمْ، مما يُعَدُّ خيانةً أخرى.

• واتَّبعوا ما أسخط اللهَ من إباحتهم الزنا والخمورَ، وشيوع الإيدز بين أبناء الشعب بحجَّة السياحة، والسياحةُ بريئةٌ من أفعالهم وتصرُّفاتهم.

• وكذلك محاربتهم الفضيلةَ والحجابَ، وتشجيعهم على التبرج والسفور، ومحاربة الختان، وتعدُّد الزوجات، وتعطيل الحدود الشرعيَّة التي تعمل على بثِّ الأمن والطمأنينة والقضاء على الفساد والمفسدين.

• وكذلك تقليدُهم للغرب في تقديم المرأة وتفضيلها على الرجل، وسَنِّ قوانين تخالف الفطرة الربانيَّة والشريعة الإسلاميَّة، كل ذلك وغيره اتِّباعًا لما يُسخِط اللهَ تعالى، وكراهيةً لما فيه رضوانُهُ ومرضاتُهُ.

**٣- معرفتهم بسيماهم**: أي لهم علامات ظاهرة عليهم في الزيِّ والمظهر والسلوك، والعادات والتقاليد، ونظام التعامل الغربي، واعوجاج لسانهم، وحبِّ اللسان الأجنبي، وتفضيله على اللسان العربي المبين، والجبن أمام الأعداء، والشدَّة على الأولياء والأصدقاء.

**٤- معرفتهم في لحن القول**: يعني من طريقة حديثهم وكلامهم، يظهر لكل صاحب بصيرةٍ ودينٍ ما هم عليه من نفاق وخداعٍ، وتشبُّث بالدنيا وركون إليها، وعدم الرغبة في الدار الآخرة أو العمل من أجلها، ويظهر ذلك بوضوحٍ في مجالسهم النيابيَّة والتشريعيَّة، وفي خُطَبهمُ الرنَّانة، وقراراتهم الهَوْجَاء.

**٥- ومن تلك العلامات** أيضًا ما ذكره النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

**{ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ**

كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ } (١).

• إنها سنَّة الله تعالى في هؤلاء المنافقين المتردِّدين بين الحق والباطل، تارةً مع هؤلاء وأخرى مع هؤلاء، يتلكَّؤون في نصرة الحق والدين القويم، وهم في النهاية لا يجنون إلا الحسرات والندمَ والعضَّ عن أناملهم من الغيظ والكَمَد إذا انتصر الحقُّ وعَزَّ وسادَ، فإن تُصِب الأمةَ مصيبةٌ فرِحوا بها، وإذا أتتهم النعمةُ والظفَرُ قالوا: ألم نكن معكم؟، ألسنا معكم؟!

• ولقد ميَّزت هذه الأحداث بين المؤمن الصادق والمنافق المخادع المراوغ الكذَّاب، بين مَن يريد الإصلاح ومَن يريد بثَّ الفتنة والفرقة بين أبناء الأمة الواحدة.

• وإذا أردت المزيد من صفات المنافقين فراجع أوصافهم كاملةً، والورادة في سُوَرِ: « البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والأحزاب، والمنافقون ».

* * *

(١) أخرجه البخاري: ك: الإيمان، ب: علامة المنافق، ح (٣٤)، ومسلم: ك: الإيمان، ب: بيان خصال المنافق، ح (٥٨)، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

## وقفة
## ما لا يغتفر للحاكم

• إذا ضاعت الأشراف هلكت الأتباع، ولا يصلح الناس إلا على أشرافهم.

**لا يَصْلُحُ الناسُ فَوْضَى لا سُراةَ لَهُمْ ولا سُراةَ إذا جُهالُهُم سادُوا**

• إذا كان الحاكم جبانًا اجترأ عليه عدوه، وضاعت ثغوره.

• « خراب البلاد وفساد العباد مقرونان بإبطال الوعد والوعيد من الحكام ».

• وقالوا: « لا ينبغي للإمام أن يكون سفيهًا ومنه يلتمس الحكم، ولا جائرًا ومنه يُلتَمسُ العدلُ ».

• ستُّ خِصال لا تُغتفر للحاكم: (**الكذب، والخلفْ، والحسد، والحِدَّة، والبخل، والجبن**)، فإنه إن كان كذَّابًا لم يُوثَقْ بوَعدِه ولا بوعيدِه، فلَمْ يُرْجَ خَيرُه، ولم يُخَفْ شرُّه).

• ولا يغفر له: اتباعه للشهوات، وإيثاره اللذات، والدخول في معاصي الله، ومساخطه، وجهلًا منه باستدراج الله تعالى، وأمنًا لمكره.

## ١٣- سُنَّة البلاء:

ولا أقصد هنا أن البلاء بالنعم والعطايا كالبلاء بالنقم والمصائب، كما قال تعالى:﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

ولكني أقصد بالبلاء هنا الفتنة التي وقعت بين الناس، وأدَّت إلى اختلافهم، وعدم وضوح الرؤية لكثيرٍ منهم، وذلك لضعف استنباطهم للأحكام واستنتاج الأحداث واستقرارها.

ولقد بيَّن النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كيف ستكون فتنٌ في آخر الزمان تَدَعُ الحليمَ حيرانَ، ويشيب فيها الشباب، ويُصبح الرجل مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليلٍ.

ولست بصدد الحديث عن الفتن ذاتها وما ورد بشأنها وكيفيَّة الخروج منها، ولكني أقصد من هذه السنة « **سُنَّةُ البلاءِ** » بيان أن ما حدث في مصر ما هو إلا أحد أنواع البلاء، وهو: بلاء التمحيص والكشف، والتصنيف والتمييز، يُمحِّص الله تعالى به الذين آمنوا، فيزداودا إيمانًا ويقينًا في إسلامهم ومعتقداتهم، فيزيدهم الله تعالى ثباتًا وهدًى وبصيرةً، ويكشف الله تعالى في هذا البلاء عن أصحاب المصالح والمطامع،

ومروِّجي الشائعات والمغرضين، وكلِّ ناعقٍ ومنافقٍ.

• يكشف الله تعالى لنا الراسخين في العلم من المنتسبين إليه زورًا وبهتانًا، ويكشف لنا العلماء الربانيِّين من علماء الجدل والسوء، والعلماء الذين يعرفون الفتن قبل وقوعها، من العامَّة الذين لا يعرفونها إلا عند رحيلها، والعلماء الذين يمجِّدون أهل الباطل والنفاق، ويخوضون في عرض العلماء المخلصين، وأهل السنة.

يكشف لنا الشباب الذي يعرف الحقَّ من الشباب الذي لا هُوِيَّة له، ويسير وراء كل ناعق.

إنها فتنة، كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت].

• إنها سُنَّةُ الله تعالى في البلاء تمييز الصادق من الكاذب.

وكما قيل: « إذا ذهب الوفاء نزل البلاء، وإذا ظهرت الخيانات امتُحِقَتِ البركات ».

فانظر لسُنَّةِ الله تعالى في ذلك البلَاء الذي انقشع عنا، وفي هذا

البلاء الذي حلَّ بنا.

• وعندما تظهر الخيانة: فهل هي خيانةٌ لله صاحب المنة والفضل في أي نعمة فيها؟، أو خيانةٌ لرسوله بعدم طاعته واتباعه؟، أو خيانةٌ للأمانة التي حمَّلنا الله تعالى إياها ؟!

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنفال].

• يقول ابن الأزرق(١): « قَالَ الشَّيْخ تَاج الدِّين: لَا تستغرب وُقُوع الأكدار مَا دُمْتَ فِي هَذِه الدَّار، فَإِنَّهَا مَا أبرزت إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحقّ وصفهَا وواجب نعتها. قال الشاعر:

طبعت على كدرٍ وأنت تريدها صَفْوًا من الأكدار والأقذار

... وإن من لَازم نصب الْحُدُود الشَّرْعِيَّة لتجري بهَا مصَالح الدَّارِيْنِ عَن أنهج طَرِيق بِالنِّسْبَةِ إِلَى كل أحد فِي نَفسه ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت]. أَن تكون الْمعْصِيَة بمجاوزة تِلْكَ الْحُدُود سَببًا فِي الشدَّة الْمُصَاب بهَا مَن

(١) بدائع السلك في طبائع الملك (٢/ ٦٨).

نزلت بِهِ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ...﴿٣٠﴾﴾[الشورى]. تعجيلًا للعقوبة قبل يَوْم الْجَزَاء

كما أَن شياع الْمَعْصِيَة وخصوصًا من السُّلْطَان وَمن يَلِيهِ هُوَ سَبَب وجود الشدائد الْعَامَّة والِابْتِلَاء بمصائبها،

كَمَا رُوِيَ عَن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا { **إِذَا فَشَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَمْسٌ حَلَّ بِهَا خَمْسٌ: إِذَا أُكِلَ الرِّبَا كَانَتِ الزَّلْزَلَةُ وَالْخُسْفُ، وَإِذَا جَارَ السُّلْطَانُ قَحَطَ الْمَطَرُ، وَإِذَا تُعُدِّيَ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ كَانَتِ الدَّوْلَةُ، وَإِذَا مُنِعَتِ الزَّكَاةُ مَاتَتِ الْبَهَائِمُ، وَإِذَا كَثُرَ الزِّنَا كَانَ الْمَوْتُ** } »[(١)].

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن من البلاء والشدائد:

**١-** تكالب العدو، وهو صنفان، كافر بالإسلام، وباغٍ على الدولة والسلطان.

**٢-** المجاعة والغلاء.

**٣-** الوباء والأمراض [(٢)].

---

(١) انظر: كتاب «الفوائد» لتمام بن محمد الجنيد البجلي، رقم (١٦٤٣).
(٢) انظر: بدائع السلك في طبائع الملك (٢/ ٦٨- ٧٤).

وهذه البلاءات لا تُرفَعُ إلا بالتوبة والدعاء والصلاة والصلاح.

• من أقوال أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: « من لم يَدْرِ قدرَ البليَّة لم يَرحَمْ أهلَها ».

وقال أيضًا: « الخلاف يهدِم الرأي ».

• لذلك تدبَّرْ سُنة البلاء في هذه الأحداث من الحكمة الإلهيَّة، وندعو الله تعالى كما علمنا أصحاب الفضل والعلم: « **اللهم اجعله أدبًا، ولا تجعلْه غضبًا** ».

• وأسعد الناس من كان القضاء له مساعدًا، وكان لمساعدته أهلًا.

* * *

# وقفة

## التعليم .. وأشباه الرجال

• المصائب هي نتيجة البُعد عن الله، والسلامة منها بالاعتصام بالله.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

• لقد سقطت الأنظمة جميعًا، لأنها اصطدمت بفطرة الإنسان.

• **من البلاء:** المستشرق المنصِّر (صموئيل زويمر)، الذي أشرف على وضع مناهج التعليم في مصر ١٨٨٢م مع (دانلوب) وآخرين: يقول مخاطباً المنصِّرين « لقد قضينا في هذه الحقبة على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية.. إنكم أعددتم شبابًا في ديار الإسلام لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله ولم تدخلوه المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراد له الاستعمار، لا يهتم للعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يعرف همّه في الدنيا إلا الشهوات.. إن السياسة الاستعمارية لما قضت منذ ١٨٨٢م على برامج التعليم في المدارس الابتدائية، وأخرجت منها القرآن ثم التاريخ الإسلامي، وبالتالي أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي يهودية، ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً للدين ولا حرمة للوطن ».

وللأسف ما زالت دول المسلمين تسير على المناهج التعليميَّة والأساليب والثقافيَّة وغيرها التي وضعها هذا المستشرق وأمثاله.

• وغير خافٍ على أحدٍ أن مصر اليوم قد جمعت في أحضانها من الأفراد ما قد يوجد فيهم كل ما يوجد في الأمم الكافرة من أنواع الطباع والأخلاق. بل قد يسابقون الكفار ويزاحمون بالمناكب في شهادة الزور في المحاكم، وفي أخذ الرشوة، والارتياد للخمارات والمراقص ودور البغاء، وارتكاب السرقة والغش، وانتشار الأخلاق الذميمة وأعمال البلطجة، وكذلك يسير بعضهم في كسب معايشه وابتغاء رزقه سير الكفار، فترى المحامي المسلم يدافع عن موكله كالمحامي الكافر وهو يعرف أن قضيته باطلةٌ، وأن الحق في جانب الآخر، ويدافع عن الظالم وقلبه خالٍ من خشية الله، وهكذا تجد الغنيَّ المسلم إذا أُثْرِي والموظف المسلم إذا تولى منصبًا يأتيان كل ما يأتيه الغني الكافر والموظف المشرك من المنكرات وسيئات الأعمال. فهل من رآهم وشاهدهم ينجذب قلبه إليهم أو إلى الإسلام الذي ينتسبون إليه ؟! إننا نحتاج إلى رجالٍ ذوي همةٍ في الصلاح والإصلاح، يتقون الله في السرِّ والعلَن، لا تصرفهم الشدائد والعقبات عن الحق وإعلاء كلمة الله، لا يمكن أن تُباعَ ذممهم في سوق المطامع والشهوات، فإذا وجدت هؤلاء فاعلم أن رياح التغيير والتقدم والتنمية والازدهار قد هبتْ.

## ١٤- سنة الفرج بعد الشدة:

قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾[الشرح].

قَالَ الْحَسَنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا مَسْرُورًا فَرِحًا، وَهُوَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: { لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ } ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾(١).

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝١٥ ﴾ [الحج].

قال علماؤنا: « ليس في خصال الخير وإن جلَّتْ، ولا في أنواع الأعمال وإن عَظُمَتْ، أعلى من حُسن الظن بالله تعالى، فهو من أعظم أسباب تعجيل الفرج ».

• قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١١٠ ﴾ [يوسف].

---

(١) سبق تخريجه.

• قال أحد الصالحين: « استعمِلْ في كل بَلِيَّةٍ تطرقُك حسنَ الظن بالله ﷻ، فإن ذلك أقرب بك إلى الفرج »، ففي الحديث القدسي: {أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي }(١)، والإنسان لا يأتيه الفرج ولا تدركه النجاة إلا بعد إخفاق أمله في كل ما كان يتوجَّه نحوَه بأمله ورغبته، وعند انغلاق مطالبه وعجز حيلته وتناهي ضُرِّه ومحنته، يكون ذلك باعثًا له على صرف رجائه أبدًا إلى الله ﷻ، وزاجرًا له في تجاوز حسن ظنه به.

• عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ كَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَذْكُرُ لَهُ جُمُوعًا مِنَ الرُّومِ وَمَا يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: « أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلْ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مُنْزَلِ شِدَّةٍ، يَجْعَلِ اللهُ بَعْدَهُ فَرَجًا. وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ. وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران] »(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: ك: التوحيد، ب: قول الله ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، ح (٧٤٠٥)، ومسلم: ك: الذكر والدعاء والاستغفار، ب: الحث على ذكر الله ، ح (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ: ك: الجهاد، ب: الترغيب في الجهاد، ح (٦).

فرفعت هذه الآية الجيش، وقاتل حتى هزم الروم شر هزيمة، وتذكروا بذلك قول الله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح:١٦].

• وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى].

عَنْ أَبِي رَزِينٍ لقيط بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ }. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَوَ يَضْحَكُ الرَّبُّ، قَالَ: { نَعَمْ }، قُلْتُ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا »(١).

وكأن معنى ذلك: أن الله تعالى يَعْجَبُ من قنوط عباده، فينظر إليهم وهم قانطون، فيضحك إليهم، يعلم أن فرجهم قريب

• عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن]، قَالَ: { مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا،

---

(١) أخرجه أحمد، ح (١٦١٨٧)، وابن ماجه: ب: فيما أنكرت الجهمية، ح (١٨١)، وابن أبي عاصم في السنة ح (٥٥٤)، وغيرهم. وأورده الألباني في الصحيحة (٢٨١٠).

وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ }(١).

• عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ، فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ }(٢).

• قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: « وَكَمْ قَصَّ سُبْحَانَهُ مِنْ قِصَصِ تَفْرِيجِ كُرُبَاتِ أَنْبِيَائِهِ عِنْدَ تَنَاهِي الْكَرْبِ كَإِنْجَاءِ نُوحٍ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ، وَإِنْجَاءِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ، وَفِدَائِهِ لِوَلَدِهِ الَّذِي أُمِرَ بِذَبْحِهِ، وَإِنْجَاءِ مُوسَى وَقَوْمِهِ مِنَ الْيَمِّ، وَإِغْرَاقِ عَدُوِّهِمْ، وَقِصَّةِ أَيُّوبَ وَيُونُسَ، وَقِصَصِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَعْدَائِهِ، وَإِنْجَائِهِ مِنْهُمْ، كَقِصَّتِهِ فِي الْغَارِ، وَيَوْمِ بَدْرٍ، وَيَوْمِ أُحُدٍ، وَيَوْمِ الْأَحْزَابِ، وَيَوْمِ حُنَيْنٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ». ثم قال: « وَمِنْ لَطَائِفِ أَسْرَارِ اقْتِرَانِ الْفَرَجِ بِالْكَرْبِ وَالْيُسْرِ بِالْعُسْرِ: أَنَّ الْكَرْبَ إِذَا اشْتَدَّ وَعَظُمَ وَتَنَاهَى، وَحَصَلَ لِلْعَبْدِ الْإِيَاسُ

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا موقوفًا عن أبي الدرداء: ك: التفسير- سورة الرحمن، وأخرجه ابن ماجه مرفوعًا: ب: فيما أنكرت الجهمية، ح (٢٠٢)، وابن حبان ح (٦٨٩)، وحسَّنه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الزهد، ب: ما جاء في الهمِّ في الدنيا وحبِّها، ح (٢٣٢٦)، وقال: حسن صحيح غريب، وأخرجه أحمد بنحوه، ح (٤٢١٩).

مِنْ كَشْفِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَتَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِاللهِ وَحْدَهُ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُطْلَبُ بِهَا الْحَوَائِجُ، فَإِنَّ اللهَ يَكْفِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق:٣] »(١).

•• ومن الأسباب التي يُرجَى بها تعجيل الفرج بعد الشِّدة ما يلي:

١- تقوى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَيْ: مِنْ جِهَةٍ لا تخطر بباله »، وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: « ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ يُنْجِيهِ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ فِي الدُّنْيَا »(٢).

٢- ميل القلب إلى الله ﷻ، والانقطاع إليه، والأنس به، والطمأنينة بذكره، والحياء منه: وذلك وقت الرخاء ووقت الشِّدَّة ، فمن ذكر الله تعالى في السرَّاء ذكره الله تعالى في الضرَّاء.

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٩١- ٤٩٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ١٦٨- ١٦٩).

٣- **الدعاء مع الاضطرار**: قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل:٦٢]. أي: مَن هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يَكشِف ضرَّ المضرورين سواه.

والدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، فهو سلاح المؤمن.

٤- **كثرة الاستغفار، والصلاة على النبيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح].

والصلاة على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سببٌ من أسباب زوال الضيق والهَمِّ.

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ إِنْ جَعَلْتُ صَلَاتِي كُلَّهَا عَلَيْكَ؟ قَالَ: **{ إِذَنْ يَكْفِيَكَ اللهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ }**(١)، وفي رواية قَالَ: أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا قَالَ: **{إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرَ لَكَ ذَنْبُكَ**

---

(١) أخرجه أحمد، ح (٢١٢٤٢)، وإسناده حسن.

(٢) أخرجه الترمذي: ك: أبواب صفة القيامة والرقائق، ح (٢٤٥٧)، وقال: حديث حسن.

**٥- الاستغاثة بالله ﷻ**: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ. قَالَ: **{ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ }**(١).

**٦- التوسل إلى الله بالعمل الصالح**: كما في حديث الثلاثة الذين انحدرت صخرةٌ عليهم من الجبل، فسدَّت عليهم الغار الذي آووْا إليه للمبيت، هؤلاء الثلاثة اشتدَّ بهم الكَرْبُ، وضاق بهم الأمر، ويئسوا من أن يأتيهم الفرج من كل طريقٍ إلا طريق الله ﷻ وحدَه، فلجأوا إليه ودعوه بإخلاص، وتوسلوا إليه بأعمال صالحةٍ (من برِّ الوالدين، والعِفَّة عن الزنا، وإعطاء الأجير حقه) خالصةٍ لوجهه الكريم، فعلوها ابتغاء رضوانه وحدَه، فأكرمهم الله، وأزاح عنهم الصخرة حتى نجَوْا جميعًا.

**٧- التوكُّل على الله تعالى**: وهو صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح والمنافع، ودفع المضارِّ والمهالك.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، ح (٣٥٢٤)، وحسَّنه الألباني.

وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦]، فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

لأنه من يتخذ من المخلوقين وكيلًا غايته أن يفعل بعض الأمور، وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله له، وهو عاجزٌ عن أكثر المطالب.

قال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر].

• **ومن تمام التوكُّل**: اليأس من المخلوقين، فلله الأمر من قبل ومن بعد. انظر كيف كان التوكُّل سببًا للنجاة من الشدائد، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ... ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران].

* * *

• وفي المحن تمحيصٌ للمؤمنين، وتقوية لدعائم الإيمان، وثباتٌ للقلب، وتنبيه من الغفلة، وسببٌ للثواب بالصبر، وتذكيرٌ بالنعمة،

ورضًا بالقضاء؛ مما يجلب على العبد رضوان الله تعالى.

وقد يمتحن الله تعالى العبد ليكثر من التواضع له، والاستعانة به، ودعائه، ويجدِّد الشكر على ما أبقاه عليه من نعمٍ، ويأخذ بيده في شِدَّته.

• وفي دوام النعم والعافية بَطَرُ الإنسان، والعُجْب بنفسه، وقد يعدل بهما عن ذكر ربه تبارك وتعالى.

• **ومن فوائد المِحَنِ أيضًا**: أنه سبحانه ربما امتحن العبد بمحنةٍ يخلِّصه بها من الهَلَكَةَ؛ فتكون المِحْنَةُ من أجل النعم عليه، فكم لله تعالى من عطايا ومِنَحٍ تأتي للعبد في صورة بلايا ونِقَمٍ، والصبور يُدركُ أَحْمَدَ الأمور.

• **قال أبانُ بنُ تغلب**: « سمعتُ أعربيّاً يقولُ: منْ أفْضلِ آداب الرجالِ أنهُ إذا نزلتْ بأحدِهمْ جائحةٌ استعمل الصبر عليها، وألهم نفْسه الرجاء لزوالِها، حتى كأنه لصبرِه يعاينُ الخلاص منها والعناء، توكُّلاً على الله ﷻ، وحُسْنِ ظنٍّ به، فمتى لزِم هذه الصفة، لم يلبثْ أن يقضي اللهُ حاجتَه، ويُزيلَ كُربتَه، ويُنجِحَ طِلْبتَهُ، ومعهُ دينُه وعِرضُه ومروءتُه ».

***

## وقفة

## « إن من الشعر لحكمة »

لا تجزَعْ إذا أعسَرْتَ يومًا ** فقَدْ أيْسَرْتَ في الزَّمَنِ الطويلِ
ولا تيأَسْ فإنَّ اليَأسَ كُفْرٌ ** لعَـلَّ اللـهَ يُغـنِي عـنْ قـلـيلِ
ولا تَظْنُنْ برَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ ** فـإنَّ اللـهَ أولَـى بالجَـمـيلِ

**« جعفر بن محمد»**

ولَرُبَّ نازِلَـةٍ يَضـيقُ لها الفَـتَـى ** ذَرْعًا وعِندَ اللـهِ منها المَخرجُ
ضاقَتْ فلمَّا اسْتحْكَمَتْ حَلَقاتُها ** فُرِجَتْ وكُنْتُ أظُنُّها لا تُفْرَجُ

**« محمد بن إدريس الشافعي »**

إذا اشتملَتْ على اليأسِ القلوبُ ** وضاقَ لما بها الصدرُ الرحيبُ
وأوْطَـنَتِ المكـارِهُ واطمـأنَّـتْ ** وأرْسَتْ في أماكِنِها الخُطـوبُ
ولم تَـرَ لانكِـشافِ الضُّـرِّ وَجهًا ** ولا أغْـنَى بحيلَـتـهِ الأريـبُ
أتـاكَ على قُـنوتٍ منك غَـوثٌ ** يَـمُنُّ به اللطيفُ المستـجـيبُ
وكـلُّ الحـادِثـاتِ إذا تـناهَـتْ ** فمَوصولٌ بها الفَـرجُ القريـبُ

**« محمد بن إدريس الشافعي »**

تصـبَّرْ إنَّ الصَّـبْـرَ خَـيْـرٌ ** ولا تَـجـزَع لنـائِـبةٍ تَـنـوبُ
فإنَّ اليُـسرَ بعدَ العُـسرِ يأتي ** وعندَ الضيقِ تنكَشِفُ الكُروبُ
وكم جَزِعَتْ نفوسٌ من أمورٍ ** أتَـى مـن دونِـها فـرجٌ قـريـبُ

**« سعيد بن حميد»**

## ١٥- سنة الفرح بفضل الله ورحمته:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[يونس].

• الفرحة إما أن تكون مذمومةً أو محمودة محبوبةً، فأما الفرح المذموم فهو كل فرحٍ تكبر، كما كان على صورة فرح قارون الذي وردت قصته في أواخر سورة القصص، لَّما بغَى على قومه فنصحوه.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾، ثم بيَّنوا له الطريق حتى لا يكون ممن لا يحبُّهم الله، فقالوا له: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾، ثم لما خالفهم ولم يستجِبْ لنصيحتهم وخرج عليهم في زينته، واغْترَّ بِهِ الذين يريدون الحياة الدنيا، وقالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، توجَّه إليهم أهل العلم بالنصيحة، وأخبروهم بحكمة الله تعالى وسُنَّته بقولهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ولما خَسَفَ الله تعالى بقارون تغيَّر حالُ وقولُ الذين تمنَّوْا مثل مكانة قارون: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص].

وفي القصة فوائد عديدة، منها:

(١) بيانٌ لنوعين من الناس لا يحبُّهم الله تعالى، وهم: الفَرِحون، والمفسدون.

(٢) بيانٌ لنَوْعَي الفرح: المذموم كفرح قارون، والمحمود كفرح أهل الإيمان. كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]، وهو الوارد في قوله في قصة قارون: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص].

(٣) بيانٌ لنوعين من الناس: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

(٤) بيانٌ للشرطَيْنِ اللازمين لإرادة الآخرة، وهما: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

(٥) بيانٌ لنوعين من العاقبة:-

**الأولى**: الخسف للبغاة والمفسدين وطلاب الدنيا.

**الثانية**: الجنة والرضوان والعاقبة الحسنى للمتقين.

(٦) بيانٌ لنوعين من حقيقة النِّعَمِ:-

**الأولى**: قارون، نعمٌ ظاهرةٌ كثيرةٌ ووفيرةٌ، ولكن نُزِعَتْ منها رحمة الله ﷻ، فصارت نِقمةً ووبالًا عليه، وسببًا في هلاكه.

**والثانية**: نِعمٌ قليلةٌ على قدر الكفاف، ولكن تحفُّها رحمة الله ﷻ، فصارت فضلًا وخيرًا ونفعًا، وسببًا لرضوان الله ومرضاته، لهذا اعتبرها الذين يريدون الحياة الدنيا لما ظهرت أمامهم حقيقة النعم، وندموا على قولهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾، واعتبروها مِنَّةً من الله وتكرُّمًا، فقالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا

﴿لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص].

(٧) بيانٌ لنوعين من استقبال العبد لِنِعَمِ الله تعالى:-

**الأول**: كُفْرٌ بها، عندما يَنسُبُ الفضل والنجاح والتوفيق لنفسه، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨].

**الثاني**: إيمانٌ بها، عندما يُنسَبُ الفضل والنجاح والتوفيق لله ﷻ وحدَه، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

لذلك قالوا: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص:٨٢].

* * *

## وقفة

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « صِنْفَانِ خَبِيثَانِ قَدْ غَمَّا كُلَّ مُؤْمِنٍ: أَعْلَاجُ عَجَمٍ، وَأَعْرَابِيٌّ لَا فِقْهَ لَهُ وَلَا دِينَ، وَمُنَافِقٌ مُكَذِّبٌ وَأَمِيرٌ مُتْرَفٌ نَعَرَ بِهِمْ نَاعِرٌ فَخَرَجُوا يَسْعَوْنَ مَعَهُ فِرَاشَ نَارٍ وَذُبَابَ طَمَعٍ. يَبِيعُ أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِثَمَنٍ حَقِيرٍ. مَنْ مَاتَ مَاتَ إِلَى النَّارِ، وَمَنْ عَاشَ عَاشَ عِيشَةَ سُوءٍ. ظَهَرَ الْجُفَاءُ وَقَلَّ الْعُلَمَاءُ وَذَهَبَ الْحَيَاءُ، وَفَشَتِ النَّكْرَاءُ. ذَهَبَ الصَّالِحُونَ أَسْلَافًا وَبَقِيَ خُشَارَةٌ كَخُشَارَةِ الشَّعِيرِ لَا يُبَالِي اللهُ ﷻ بِهِمْ بَالَهُ ». العزلة للخطابي، ص (٧٣).

• قال يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: « شَيْئَانِ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعَزَّ مِنْهُمَا لَا يَزْدَادَانِ إِلَّا قِلَّةً: أَخٌ فِي اللهِ يُسْكَنُ إِلَيْهِ، وَدِرْهَمٌ حَلَالٌ يُوضَعُ فِي حَقٍّ ».

• وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ للربيع بن سليمان: «يَا رَبِيعُ، رِضَى النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، فَعَلَيْكَ بِمَا يُصْلِحُكَ فَالْزَمْهُ.فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى رِضَاهُمْ » حلية الأولياء (٩/ ١٢٣).

• حقيقة الشكر « هو تصريف النعمة في الطاعة، فإذا أنعم الله تعالى على عبده بنعمةٍ فصرفها في طاعته فقَدْ شكرها، وإن صرفها في معصية فقدْ كفرها ».

• الشُّكْرُ قَيْدُ النِّعَمِ، ومفتاح المزيد، وثمن الجنة، ومن شكر قليلًا استحق جزيلًا، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْإِنْعَامَ فَاعْدُدْهُ مِنْ الْأَنْعَامِ، والنعمةُ عروسٌ مهرُها الشكرُ، وثوبٌ صونه النشر، وشكر الآلاء بحسن الثناء.

- مجموعة من السنن الإلهيَّة الأخرى:

١٦- **سُنة:** الأمن بعد الخوف والجزع.

١٧- **سُنة:** الأماني الحميدة لا تنفع إلا بالعمل والجد.

١٨- **سُنة:** هلاك الأمم والشعوب بالمعاصي والذنوب.

١٩- **سُنة:** ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة].

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢﴾ [المسد].

٢٠- **سُنة:** ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر].

٢١- **سُنة: الأخذ على يد الظالم**، فإن الأمة إن هابت من الأخذ على يد الظالم فقد تُوُدِّعَ منها، وإذا سوَّدَتِ المنافقين فقد تُوُدِّعَ منها.

٢٢- **سُنة:** الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سِمَةُ هذه الأمة، وشرط الخيرية فيها.

٢٣- **سُنة الصراع بين الحق والباطل وديمومته:** قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ [الأنبياء: ١٨].

٢٤- **سُنة:** العبرة بالخواتيم، والعاقبة للمتقين، وتتبعها: حسن الخاتمة، وسوء الخاتمة.

٢٥- **سُنة:** ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي

ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

٢٦- **سُنة:** عِزُّ الربوبيَّة وهَيْمَنتُها، وذلُّ العبوديَّة وانكسارُها.

٢٧- **سُنة:** هيبة الحق وجلاله.

٢٨- **سُنة:** شهود صدق كلام الله ﷻ وخبر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والثقة بالله تعالى وموعوده ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ١٠].

٢٩- **سُنة:** ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر].

٣٠- **سُنة:** ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

٣١- **سُنة:** { مَن لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ }.

٣٢- **سُنة:** انصرْ أخاك ظالمًا (بأن تمنعه من الظلم)، أو مظلومًا (بإنصافه).

٣٣- **سُنة:** صنفان من الأمة لم يَرَهُما النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع إخباره عنهم، وهم: (الحكام الظلمة، والنساء الكاسيات العاريات).

٣٤- **سُنة:** { من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب }.

٣٥- **سُنة: الموالاة والمعاداة.**

فكم خذل النصارى مَن والاهم، كما خذلت أمريكا شاه إيران، وكان أهم عميل لها في المنطقة، وكذلك خذلت صدام حسين،

وخذلت فرنسا زين العابدين التونسي، ولم تستقبله، وخذلت حسني مبارك المصري.

٣٦- **سنة: راية الحق لا تُهزَم**. يزول الحاكم والأفراد، ولا يزول الحق أبدًا.

٣٧- **سُنة: زوال الأشخاص وبقاء الإسلام**. فكم هُزِم من أمراء المسلمين على مرِّ التاريخ، لأنهم كانوا يَستظِلُّون برايات المطامع والأهواء، ويضربون بسيف البغي والعدوان.

٣٨- **سُنة: خذلان أعداء الإسلام ومحو آثارهم** التي تحكي أمجادهم وأعمالهم وبطولاتهم الحقيقيَّة أو المزيفة في حياتهم؛ مما يزيدهم حسرة على حسرتهم.

٣٩- **سُنة: حلم الله تعالى** على من عصاه وتكبَّر، وعاداه وتبختر.

٤٠- **سُنة:** ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص].

٤١- **سُنة: التميُّز**: قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

٤٢- **سُنة: { اتَّقِ دعوةَ المظلومِ }**. فكم دعوةٍ رُفعت إلى السماء من

أفواه المظلومين، وتجاهلها الظالمون حتى كانت سببًا في زوال ملكهم، وقد أقسم ربُّ العِزَّة تبارك وتعالى، وقال لها: { وَعِزَّتِي، لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ }(١).

٤٣- **سُنة:** **التدافع** ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

٤٤- **سُنة:** إياك والكسل، فإنك إذا كسلت لن تؤدِّيَ حقًّا.

٤٥- **سُنة:** التحكيم في الأرض لأهل الحق: أنه يمرُّ بثلاث مراحل:

**الأولى**: الاضطهاد والتعذيب والهجرة.

**الثانية**: الثبات والمواجهة، وتكتل أهل الباطل في أحزاب تواجه الحق وتعاديه وتحاربه.

**الثالثة**: التمكين بعد أن يتخذ الله تعالى شهداء في سبيل الله.

• والإسلام لن يُمَكَّنَ من خلال نُظُم أرضيَّة، من ديمقراطيَّة غربيَّة، أو اشتراكيَّة، أو رأسماليَّة، أو نحو ذلك، لأنه نظام دينيٌّ يَعلو

---

(١) سبق تخريجه.

ولا يُعلَى عليه، وما انتشر الإسلام إلا بالاستعلاء وسيف الحق والقوة، كما انتشر بسيف الأخلاق.

قال الله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨].

« وسُئِلَ الإمامُ الشافعيُّ: يا أبا عبد الله أيهما أفضل للرجل أن يُمَكَّن أو يُبتَلى؟ فقال الشافعي: لا يمكن حتى يبتلى؛ فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكَّنهم »(١).

**٤٦- سُنة:** قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[الأنعام].

**٤٧- سُنة مكر الله بالماكرين:** قال تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل]. وقال

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (١/ ١٩٣).

تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

**٤٨- سُنة الاستقامة:** قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير].

**٤٩- سُنة: { كما تدين تدان }، [عففتَ فعفَّت رعيَّتُك، ولو رَتَعْتَ لَرَتَعُوا ]** من قول عليِّ بن أبي طالبٍ لعمرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

**٥٠- وأخيرًا: سُنة عودة الإسلام كما بدأ.**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ }**(١).

***

فهذه خمسون سُنَّةً، بعد خمسَ عشرةَ سُنَّةً، ذكرناها ببعض من التفصيل، وهناك سُنَنٌ أخرى سنفردها بالتفصيل أيضًا في كتاب بعنوان: **(سُنَن الاستبدال)** إن شاء الله.

---

(١) أخرجه مسلم: ك: الإيمان، ب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا، ح (١٤٥).